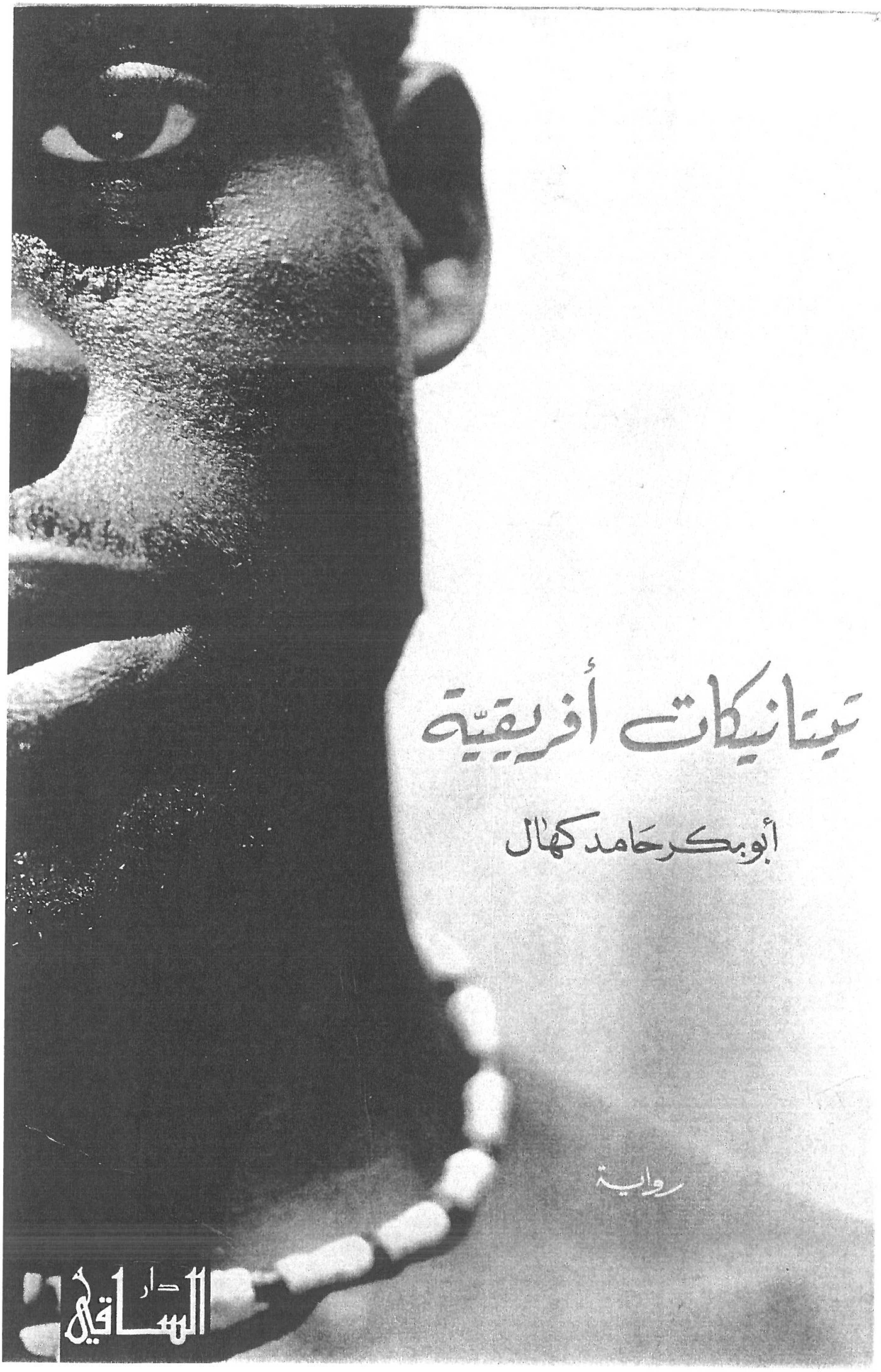

تيتانيكات أفريقيّة

أبوبكر حامد كهال

رواية

دار الساقي

تيتانيكات أفريقيّة

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

أبوبكر حامد كهال

تيتانيكات أفريقيّة

رواية

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-320-1

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

كنت مرهقاً من التجوال والمشاوير الكثيرة لمقابلة سماسرة التهريب هنا وهناك، بين الخرطوم وأم درمان والعكس. كنت أعبر أحياناً من أم درمان إلى الخرطوم عبر جسر مستر «كوبر» الحديدي العتيق من أيام الإنكليز، لأعود من خلال كوبري شمبات الواسع. كان العبور فوق كوبري مستر كوبر مقروناً لدي بمخاوف أن تسقط بنا السيارة فوق فرع نهر النيل، وأعتقد بأن هذا كان حال جلّ الركاب، وإن تظاهروا بالعكس. كانت ملابسي تبتلّ وتجفّ من العرق عشرات المرات في اليوم الواحد نتيجة هذا التجوال؛ أما ألم باطن قدمي، فكان لا يطاق. لقد أهملت معالجتها حتى صارت «عين السمكة» - المسمار اللحمي - بحجم العين الحقيقية. وكلما خطوت أو دست شيئاً قاسياً، كانت تؤلمني بشدة. لهذا أطلق عليّ أصدقائي لقب «الأعرج». ولم يكن لهؤلاء الأصدقاء من شغل سوى التباري والتسلي بإلصاق الألقاب بي في انتظار رحلة الصحراء التي كنا نخطط لها.

كنت أعود دائماً إلى مسكننا المستأجر في حي الأربعين وسط أم درمان عند منتصف الليل، فيتحلّق حولي من بقي صاحياً في

الدار ليسمعوا مني آخر أخبار دنيا التهريب. ولكن في واحدة من تلك الليالي، لم أنقل لهم أية أخبار، بل رميت إليهم بإحدى الصحف قائلاً: «فيها حدث مسلٍّ علّه يردعكم عن مشاكستي ورميي بالألقاب جزافاً».

كانت الصحيفة تحوي فعلاً خبراً طريفاً. فقد ذكرت أن أحد المسؤولين في حديقة حيوان الخرطوم أُوقف عن العمل وتشكّلت على عجل لجنة للتحقيق معه بدعوى استغلال وظيفته وارتكابه تجاوزات عدة. وكان عنوان الخبر هذه الجملة الطريفة: «الرجل الذي أكل نصيب الأسد». كان فحوى الموضوع أن أحد العاملين في الحديقة، وكان مسؤولاً عن إطعام الأسد الوحيد في الحديقة، درج على مدى أشهر طوال على الاقتطاع من طعام الأسد لنفسه، إذ لم يكن يقدّم له سوى ثلاثة كيلوغرامات من اللحم عوضاً عن السبعة المقرّرة. وقالت الجريدة إن الأسد أصيب بهزال واضح نتيجة الجوع، في حين ظهرت على آكل نصيب الأسد بوادر سمنة غير معهودة. هذا هو النبأ الطريف الذي أطلق في ليلتنا تلك موجات من الضحك. اتفقنا بعدها على أن نقوم في النهار التالي بزيارة للحديقة ورؤية الأسد المخدوع.

تجوّلنا طويلاً في الحديقة بحثاً عن الأسد؛ عثرنا عليه أخيراً منزوياً داخل قفصه، وكنا قد اشترينا من المسلخ دجاجة جئنا بها كهدية له. حين أخرجناها من الكيس لرميها إلى داخل قفصه، انشق المكان فجأة عن رجل أخذ منا الدجاجة بعد أن قدّم لنا نفسه قائلاً:

– أنا المشرف هنا. لن يأكل من أيدي الغرباء. سأقدّمها له في العشاء. من الغريب أن يجلب الزوار طعاماً لحيوانات الحديقة!

أجبته: «لقد قرأنا عمّن أكل نصيب الأسد».

ضحك الرجل بملء شدقيه وقال وهو يغوص في الضحك أكثر فأكثر:

– سمعت عن هذا. هل ما زالت الناس تصدّق كلام الجرائد؟

– هل تقصد أن القصة مختلقة؟

ظلّ يضحك ولم يجب، فتركنا الدجاجة بين يديه ورحلنا. وفيما نحن نخرج من البوابة، تساءل أحدنا قائلاً: «قد يكون صاحبنا هذا هو من أكل نصيب الأسد. وقد يكون الآن بصدد اقتطاع نصيبه من الدجاجة». رحلنا في صمت، ولكن بعد أضافوا إليّ لقباً جديداً لا أحبّذ الإفصاح عنه.

كم من الألقاب سأحمل في حياتي؟ في الخرطوم كان لقبي «الأواكس» باعتبار أنني لم أكن أنام في الليل إلا وقد جمعت كل ما استجدّ من معلومات وأخبار وأحداث في عالم تهريب المهاجرين، براً وبحراً وجواً. مثلاً، كنت أعرف، من مكاني في الخرطوم، عدد «التيتانيكات» التي غادرت خلال الصيف شواطئ المتوسط الأفريقي نحو أوروبا، كذلك تلك التي أبحرت منذ أيام، وما إذا كانت قد وصلت بسلام أو غرقت. حتى القوارب المطاطية الصغيرة أو قوارب «الفايبرغلاس» المتأهّبة للمغادرة، والتي تقطع المسافة من اليابسة إلى اليابسة في ثماني ساعات كانت لديّ حزمة

أخبار عنها. وكنت مطلعاً على وقائع عمليات الاحتيال، بل ومقدار الأجرة الذي يتقاضاها الملاح المغامر.

وقبل أن تطأ قدمي تراب العاصمة السودانية الخرطوم، كانت قد توافرت لدي معلومات هائلة، كالأسماء وألقاب السماسرة - قد لا تكون حقيقية أحياناً - مثل «وناس»، و«ود الليل»، و«المنتف»، وكذلك أسماء سائقي «اللاندكروززات» مثل «ملثم» و«جنى شيطان» و«ودار» (لكثرة ما تاه في الصحراء، وهو الذي سأسافر معه لاحقاً). وحالما غادرنا الخرطوم في طريقنا إلى ليبيا عبر الصحراء، كنت «الخفاش»، اعتقاداً من الذي أطلق علي اللقب بأنني أمتلك خاصية التقاط الأصوات البعيدة، ما يعوضني الضعف الذي أعانيه في نظري الكليل.

والألقاب التي لازمتني في حياتي لا تنتهي؛ ففي «إرتريا» مسقط رأسي، كنت أحمل لقب «الشمام»، نتيجة إشاعة أطلقها صديق لدود قال فيها إنني أشم قطعة قماش مشبعة بالبنزين، وهو ما كان محض هراء. ولكن على العموم، فقد مسح بذلك اللقب القديم الذي عرفت به في صغري، وهو «أمبسا»، ويعني، بلغة التغري، الأسد.

وقد بدت الهجرة للبعض مثل موجة منفلتة أو شلال هارب يصعب فهمه، ولا يدرك أحد متى ولا كيف سيتوقّف. ويعلق كثيرون وسط الحيرة التي ألمت بهم وهم يشاهدون ما يفعله هذا المسّ: «ستغدو أفريقيا مثل خشبة مجوفة تعزف فيها الريح ألحان العدم». والبعض عزا كل ذلك، وأنا منهم، إلى أنه من فعل ساحر

غامض انبثق من المجهول، قارعاً جرساً عملاقاً أيقظ رنينه شبيبة أفريقيا من سباتهم، وانتفضت له مجاهل الغابات، قالباً الحياة في أي مكان وصل إليها صوته رأساً على عقب. كان مثل حمى تدفقت على البلاد تدفق البلاء. ولم تترك رأساً شابةً... ذكراً أو أنثى على حالها. رن... رن... رن... «صوت الفردوس ينادي أن هلمّوا...»

كان الجرس يدور ويدور بلا رحمة، ملقّحاً العقول بجرثومة الهجرة. أما أنا، فقد وصلني صوته قبل خمس سنوات. لم أكترث له في البداية مطلقاً. كان بالنسبة إليّ كبقية الأصوات التي لا تعنيني في هذه الحياة، ومنها مثلاً دوي فرقعات ديناميت شركة «ديبونتي» الإيطالية وهي تحطّم صخور جبال إرتريا، أو صوت بائع الحليب منادياً «حليب، حليب، حليب»، وهو على ظهر حماره على دروب بلدتي المظلمة. ولكن حالما صرعني عقب كل تلك السنوات من التجاهل وانغراس جرثومته في مجرى دمي، سمعتني ذات يوم أقول: «كم كنت غبياً إذ تجاهلته كل هذه السنين». ومنذ تلك اللحظة، صرت مربوطاً إلى صوته، ساحباً جسدي المنهك خلفه أينما اتجه.

تلقّفني الجرس، وخلع جسدي من بلدي، وعبر بي خفية في الليل حدود السودان إلى ليبيا. فعشت الضياع في الصحراء، ونجوت من موت مؤكد. ثم عبرت الحدود إلى تونس خفية أيضاً. كنت أحس أن هذه هي دائرتي التي خلقت من أجلها، وأنه ليس من بد سوى الدوران المميت في قلبها.

والحقيقة أن تلك السنوات الخمس من حياتي - أسميتها لاحقاً «السنوات المحمية، أو المسيّجة» - التي بقي فيها عقلي بمأمن عن الاستجابة للسحر، كنت أحاول فيها الإخلاص لآرائي وبعض مبادئي، والتي عرضت لها جميعاً في وقت مبكر عبر مسرحية من تأليفي بعنوان «الشبح والقناع». ولا أزال أحتفظ، كبرهان لمن أراد التحقّق، بمسودتها الأولى. وقد جُسّدت في حينه على خشبة المسرح الرئيس لبلدتي. فيها أحذر من الأخطار التي تستهدف عقول الناس، الناس قاطبة دون تحديد طبقة أو فئة بعينها. وعالجت موضوعي من دون أي تعقيد، بتصوير وصول شبح مقنع إلي قرية من قرانا، له صوت معدني، يدفع أمامه عربة موتى، وتفوح من قبعته المتآكلة وحذائه الجلدي الطويل رائحة بشرية (ويبدو أن القبعة والحذاء كانا قد صنعا من جلود آدمية). وراح يستحوذ بما يمتلك من قوة تأثير خارقة على عقول جزء من السكان وإرادتهم، ويحوّلهم إلى مجرد مسوخ بأرواح هائمة خاضعة لأوامره.

هذه الأفكار وغيرها، بالرغم من سذاجتها الظاهرة، هي التي نأت بي كل تلك السنين عن الوقوع في براثن سحر رنين الجرس.

وكان الجرس اللعين يأتي في عدة صور، كأن تلتقط مثلاً لشاب من المعارف صورة بجوار سيارة فخمة في مدينة أوروبية ليبدو كأنه مالكها، وتكون الحقيقة أن صاحب الصورة يعمل كمربّ للكلاب. أو أن يعود أحد المهاجرين المحظوظين إلى بلدته من المهجر في زمن قياسي، وبمعيته صبية حسناء وسيارة. أو أن

تصل رسالة مطولة من رجل اغترب طويلاً، يعد فيها بالعودة والاستقرار نهائياً في الوطن الحبيب، لأنه، وحسبما أفصح، قد تمكّن من جمع ثروة تكفي لافتتاح مصرف هناك. والحقيقة هي أن عودة صاحبنا غير أكيدة، ولكن الأكيد أنه كان يكذب بشأن الثروة الكبيرة التي تباهى بها. أما العائدون من أوروبا من حمَلة الشهادات العليا، والمفلسون في الغالب الأعم، فلم يكن أحد ليعيرهم اهتماماً، بل كانوا مثار سخرية القريب والبعيد بسبب عودتهم بلا حسناوات ولا سيارات.

لقد توصّلت بعد دراسة عميقة - عادة تكون دراستي عميقة جداً - إلى العثور على وجه الشبه بين جرسنا الذي أسكرتنا دقاته وانتزعتنا من حياتنا (كانت حياة رغم كل شيء) الهادئة، وأعني المستقرة، وبين جرس آخر مماثل له، كان الانقياد لفتنته منقطع النظير. كان هذا الجرس الآخر لساحر عاش قديماً في أوروبا، حسبما قرأت ذات مرّة في كتاب عن الأساطير. وتذهب تلك الأسطورة إلى أن رجلاً ساحراً ظهر فجأة في إحدى المدن الأوروبية، وفي يده جرس ظلّ يدقّه وهو يجوب الشوارع. إلى هنا، لا يدعو الأمر للغرابة: رجل يهيم في الشوارع، قارعاً جرسه بعنف؛ لكن وقائع ما حدث بعد ذلك هي ما أعطى للأسطورة مغزاها التراجيدي. إذ تقول الأسطورة، أو الخرافة، إن صوت الجرس كان بمثابة السحر الذي سلطه الساحر على أطفال المدينة. فما إن يسمع طفل ما تلك الرنات، حتى يسلمها كل حواسه، ويمضي خلفها كالنائم نحو غابة خارج المدينة. لم يُستثنَ من

الوقوع في حبائل الرنات الآسرة هذه حتى الأطفال الذين كانوا قد وقفوا للتوّ على أقدامهم، منتشين بمعجزة الوقوف. كانوا يستسلمون بحواسهم كافة إلى دقات الجرس، مشدوهين ومشدودين بتوق جارف للحاق بها. وكانت الأمهات يعانين الأمرين وهن يرين أطفالهن وقد تلبّسهم السحر. وقد أظهرن كفاحاً مشهوداً في حماية أطفالهن، سطرت فصوله في كتب التاريخ.

في حالتنا، انعدم العاصم الذي يدرأ عنا خطر المضي خلف ساحرنا القاسي. وعندما سردت لمالوك الليبيري، والذي ربطتني به الأقدار لاحقاً وترك رحيله في نفسي تجاويف حزن عجزت حياتي حتى الآن عن ردمها أو التغلب عليها، قصة الأجراس اللعينة وملحمة أمهات المدينة الأوروبية، قال لي: هناك ملحمة أفريقية شبيهة بملحمة الأمهات هذه. الفرق هو أن ما تسميه أنت ملحمة نساء أوروبا تندرج في باب الأسطورة، أما هذه الأفريقية، فقد حصلت أخيراً، وأبطالها لا يزالون أحياء يرزقون. وحكى لي قصةَ، أو أسطورةَ، السيد «لولو كاجمكور»، دون أن يذكر لي موطنه، حتى في الصفحات التي قال لي إنها تحوي الحكاية من أولها، وأنه كان في الأصل يتدرّب فيها على الكتابة. وتبرز القصة كفاح السيد «لولو كاجمكور»، مثل أمهات المدينة الأوربية آنفة الذكر، لمنع ابن أخته المدعو «بوارا» من الهجرة.

قال لي وهو يناولني الأوراق التي كان قد دوّنها منذ نحو عام ونصف:

- اقرأ. وأرجو ألا يربكك أسلوبي الرديء.

كان مالوك قد أصدر الحكاية بعنوان «أخبار كاجي». يمضي فيها قائلاً: أخبار ضئيلة كانت تصل من وقت إلى آخر. وكان المصابون بهوس تتبّع الغرائب يجمعونها من هنا وهناك، ويلصقونها مثل الخرائط القديمة ليفرشوها في الجلسات، سواء في الحانات أو في أماكن السهر، لتسرد كأخبار موثوق بها.

وما إن وصلت، بعد عناء، المراكب الأولى التي كانت تحمل على متنها أنفاراً قليلين إلى الشاطئ الآخر، حتى كانت حكايتها وحكاية الجماعات التي كانت على متنها تنتشر على الشاطئ الأفريقي لتعمّ أرجاء أفريقيا كافة، بمثل السرعة التي تسري بها أي أحداث غريبة ومبهجة في آن واحد، في حين لم تتعدّ الأيام التي انشغل فيها الناس بنبأ اختفاء أحد القوارب في مياه المتوسط عدد أصابع اليد الواحدة، وسرعان ما حلّت محلّها أنباء وأحداث أخرى. صحيح أن نفراً من أصدقاء الذين ضاعوا في القارب وأقاربهم استمرّوا في تتبّع الأخبار فترة من الزمن، إلا أن ذلك ما لبث أن طوي نهائياً. وعادت حمى الجدال حول نجاح المراكب في بلوغ اليابسة الأوروبية.

تحدّث بوارا الذي جلس داخل حانة صاخبة بصحبة خاله:

- أنا لا أشكك في صحّة الأنباء...

قاطعه لولو كاجمكور:

- اسمع، أنصحك يا ابن أختي ألا تعطي بالاً لهذه التأليفات من الأخبار النيئة.

- نيئة؟ من أين تعرف أنها نيئة؟ اسمع مني يا لولو

كاجمكور. أنت هو من ينبغي له أن ينتصح. ثم ما لي أتورّط معك في جدال لا ينتهي؟!

وكان كاجمكور قَبِل على مضض الجلوس في هذه الحانة المتطرّفة نزولاً عند رغبة ابن أخته، رغم فارق العمر بينهما، إلا أنهما ظلا لسنوات يترافقان في الأمسيات، شريطة ألا يقرب بوارا المشروبات الروحية، وأن يكتفي بالرقص وشرب العصائر.

قلب عينيه مراراً ناحية السقف العاري إلا من تلك الأخشاب الثقيلة التي تتصالب فوقهما. وجد في تلك اللحظة رغبة في أن يكلم صاحب الحانة عن السقف العاري، وهو يشاهد القمر من خلال فتحات السقف، صغيراً ومنكمشاً في العمق البعيد للسماء، وقد تناثرت حوله نجمات بدت باهتة في ذلك الفضاء الواسع. لكنه لم يفعل. سُمع يكلّم نفسه: «لماذا أنا من يتكلّم حول هذا الأمر التافه؟ ثم إنني لا أميل أصلاً إلى المجيء إلى هنا. ليس أنا من كان يريد أن يتكلّم حول هذا السقف».

قال بوارا: «هيا يا كاجمكور، قل إنك تصدّق مثلي خبر وصول المراكب إلى لامبدوزا الإيطالية.»

كان كاجمكور في عالم آخر. إنه، ورغم تشكّيه من وضع الحانة الغريبة بناسها الصاخبين، أقرّ أن هناك أمراً ما يجذب كل هؤلاء للمجيء إلى هنا. ربما هو ذلك القمر العميق جداً، قال في نفسه، الذي يرعى نجيماته العجاف.

جرع من الكأس جرعة أحسّها حارقة، وتمنّى في تلك اللحظة أن يأتي له أحد بشيء يأكله.

الذين يعرفون كاجمكور لن يستغربوا إحساسه بالجوع في هذا الوقت، لأنه منذ سنوات درج على تناول وجبة واحدة في اليوم الواحد ليحظى أطفاله الكثر بالطعام. وقد حلّ الآن الموعد الذي اعتادت معدته أن تستقبل فيه الطعام، لكنه واصل الشرب على الخواء.

حين ينتشي كاجي، وهذا اختصار لاسمه، ينفلت لسانه بغناء عذب. وكان بوارا يحب في خاله هذه السمة كثيراً. كانت الأغنية الشجية المسماة «الفرحة»، والتي تحاكي فرحة الإنسان الأول ودهشته في الأرض حين رأى لأول مرّة امرأة، من ضمن ما أداه كاجي في تلك الأمسية السعيدة.

تؤدّى الأغنية ببريق عيون ضاحكة، وشفاه باسمة، وبصوت يصدر كلماته كمن يروي قصّة، ولكن بلحن به كل رنين الروح المأخوذة والمندهشة، مع إيقاعات وخبطات على الأرض تمثّل فواصل بين مفاصل الحكاية المغناة.

وكان كاجي قد فكر، وعزم العزم كله على عدم ترك الغرّ بوارا يهاجر، وعلى استئصال جرثومة الهجرة من عقله بمثل هذه الأغاني التي يبرع في أدائها. كان هذا دأبه إلى أن شفي بوارا أخيراً من الجرثومة، وواصل حياته كفلاح ووارث للأغنيات.

كما قلنا، جاءت الأغنية على لسان أول رجل وجد في الحياة. وحسبما تسرد الأسطورة الأفريقية الطويلة التي سنأخذ منها هنا ما يخدم غرضنا فقط، أن أول إنسان وجد في الحياة كان رجلاً. وبعد انقضاء سنوات على وجوده وحيداً، تولدت لديه

أحاسيس مفادها أن هناك فراغاً ما في حياته البائسة هذه، وأن هناك ما ينقصها فعلاً. لكنه كان عاجزاً عن تحديد ماهية هذا الشيء. ماذا عساه قد يكون؟

وخلال فترات تأمله الكثيرة بغية الوصول إلى ما يرى أن حياته لن تعرف الاستقرار إلا بوجوده، أطلق في يوم من الأيام العنان لخياله، وراح ينحت بواسطة الأحجار المسننة جذع شجرة على صورة ما تخيل أنه هو ما ينقصه، وأنه يمثل ضرورة لوجوده. وبعد أن فرغ من عمله الفني - أول إنتاج للإنسان - حمل منحوتته التي جاءت على صورة امرأة كما تخيلها إلى مضجعه جعلها تنام قربه. وحين استيقظ في الصباح، وجدها تستيقظ إلى جانبه مع ابتسامة على وجهها ولا أعذب.

من هنا تولدت أغنية الفرحة. من الشهقة... من اللخمة... من الدهشة... من الحياة نفسها... من الكمال الذي حققه خيال جدنا الفنان، جد البشر جميعاً، من رؤية مخلوق حلو ووديع، على غير توقّع.

يصنّف المشتغلون بالتراث تلك الأغنية التي كانت أقرب إلى الصلاة على أنها أقدم تراث أفريقيا اللحني والسردي. فهي سردية إذن، وهناك من يقول إنها إنبائية، وهناك من يتعمّق أكثر بوصفها بـ «الشهقة الفريدة» لأنه لم ولن يكون عند البشرية شهقة شبيهة بها، في أي مرحلة من مراحل وجودها.

هذه هي الحكاية، التي سمح لي فيها مالوك بأن أستمرئ طعم الروعة، وجال بي خلالها على عوالم من الخيال المترع

بالدهشة، وقدّم لي درساً هو أن الأغنيات أيضاً تبطل السحر.

للإفلات من القلق ولدفن مخاوف الروح في انتظار ساعة الانطلاق، درجت على قضاء كامل نهاري متجولاً في الخرطوم، أراقب شروق الشمس من على جزيرة «توتي»، بعد أن أكون قد مشيت أربعة كيلومترات وعبرت من قبالة قاعة الصداقة إلى جزيرة «توتي» على متن قارب محمل بالخبز والخضر.

كنت أتناول طعام الغداء في مطاعم شعبية وسط زحام كرنفالي. في ساعات الهجير، ألوذ بأشجار حديقة النيل مع أعداد لا تحصى من البشر: موظّفون حكوميون، تجار، عمال يوميون، عساكر بزيّهم الرسمي، طلاب جامعات يأتون متأبطين صحفهم ويفردونها هناك تحت الظلال. وهذا المكان يعدّ الوحيد في العالم تقريباً الذي يمكن فيه قراءة ما يربو على ثلاثين صحيفة تصدر يومياً في الخرطوم وصحف أخرى من أنحاء العالم دفعة واحدة، عبر تبادلها وتمريرها من فرد إلى آخر.

يقول لي الأصدقاء متعجبين من حمى جولاتي هذه:

– وفّر طاقتك للرحلة يا رجل.

– لا أستطيع المكوث والتفرّج على نفسي كما تفعلون.

يدافع أحدهم بمرارة:

– هل ترانا نتفرج على أنفسنا؟ وهل هناك أصلاً من بمقدوره التفرّج على نفسه سوى السحرة؟

أمر آخر قمت به في الخرطوم قادني إليه الجانب السلبي من

طباعي أو لنقل بالأحرى ضعفي المكين، وبالأصح إيماني الخفيف بضاربات الودع وضاربي الرمل «الضيربي» وقارئات الفنجان والعرافات، وأصناف المشعوذين والسحرة (ذكوراً وإناثاً) لمعرفة طالعي؛ والحق يقال إن لبعض من هؤلاء قدرات شبه خارقة. أقول هذا عن معايشة حقيقية مررت بها حين كنت مدمناً التعريج على «الأوكار»، حسبما يسمي أحد أصحابي الأماكن التي يزاول فيها أولئك الناس مهنهم الغريبة.

والحقيقة أنها عادة قديمة اكتسبتها في مدينتي، بدأت بمجالسة أصحاب المقدرات الخارقة هؤلاء من أجل التسلية وملء الفراغ، إلى إن استفحلت وصارت عادة لا أحب مصارحة الآخرين بها؛ فما كان للتسلية وتقطيع الوقت أصبح أمراً صعب علي الفكاك منه.

إن عدد المرات التي جلست فيها مثلاً قبالة ضاربات الودع لا تحصى. أجدني لا شعورياً أعرج إلى الرصيف، أو إلى الشوارع الخلفية حيث تتخذ الواحدة منهن شجرة ما مكاناً لعملها. تسند ظهرها إلى الجذع، وتكوم «عدة الشغل»، وهي الودعات فوق الخيشة المفروشة أمامها، في انتظار المأزومين وفاقدي الأمل لتكشف لهم عن البخت أو الطالع.

أستعرض وجوههن. أتفرّس جيداً في أعينهن، كمن يريد الغوص فيها لِكنه مقدرة كل واحدة منهن.

جلست إلي وداعات جئنا إلى الخرطوم من رواكيب «قندر» في أثيوبيا و«هوساويات» ضامرات وغامضات جداً من نيجيريا وعجائز دعيات لا يُعرف لهن بلد. جلستُ بحيرة أمام وداعات،

بعد أن يرمين الودعات السبع على الخيشة، يرحن يتأملن الأوضاع التي اتخذتها الحبات مدداً أطول من المعتاد قبل إلقاء تأويلاتهن ورؤاهن على مسامعي. هل هو لإيهامي بأنهن متضلّعات من الأمر؟ أو أن كل تلك الإطالة هي لتعذيب روحي عبر التدليل بالإيحاءات عن سوء طالعي؟ كيف أفسر ظهور التجاعيد والتغضّنات التي تظهر فجأة فوق جباههنّ بلا مقدمات وهنّ ينظرن نظرات أسف إلى الودع المتناثر؟ وماذا عن زوايا أفواههنّ التي تتبادل السقوط والصعود بتواتر وبشيء من العصبية؟

لقد وجدت من كل هذا أن طالعي كان يتبدّل من يوم إلى آخر، وتتناقض نتائجه عند الوداعة نفسها بين صبح وعشية مثل طقس أرض مسحورة لا يعرف استقراراً.

في إحدى العشيات، وجدت قدميَّ تسحبانني إلى وكر امرأة مشعوذة. ولجت من باب الوكر ومشيت عبر أرض الفناء المرشوشة بالماء. كانت التربة داكنة ويبدو أن الخدم كانوا قد درجوا على مر الأيام برش رماد الموقد فوقها لتأخذ شكلها الداكن، فبدت كتربة براكين. استقبلني خادم بشوش وساقني إلى صالون يعبق برائحة البخور. بعد لحظات، اضطررت إلى إطفاء سيجارتي عندما طلب إلينا، أنا وامرأة شابة قدمت منذ قليل، الدخول إلى حجرة الساحرة. وكنت قد عرفت من خلال الكلمات القليلة التي تبادلتها معها أنها على وشك أن تفقد زوجها بسبب السحر الأسود.

كانت الساحرة جالسة على مفرش وثير مُدّ على الأرض فوق

بساط عريض من السعف المصبوغ؛ رفعت بصرها نحونا وأشارت لنا بالجلوس.

بعد أن استمعت إلى شكوى المرأة باهتمام، قرّبت إليها كانون النار وانتقت جمرات صلبة وضعتها فوق المبخر المزخرف، ثم فتحت علبة اللبان وأخذت منها كمية هشة رشتها فوق المبخر، فارتفع دخان البخور كثيفاً، مالئاً جو الغرفة برائحة طيبة. بعد ذلك، انتقت حبات لبان كبيرة ووضعتها فوق الجمر إيذاناً ببدء طقوس «كشف المستور».

راحت تتمتم بكلام مطلسم مدشنة به جلسة الكشف، لم ألتقط منه شيئاً لأنه ليس بأي لغة.

ثم أشارت للمرأة أن تنظر إلى الهيئات وإلى الصور التي يتّخذها اللبان المشوي. أخذت المرأة تنظر بحذر إلى كتل اللبان فوق النار كمن يسمع كلاماً لا يريده، ولكن في النهاية ظلت تمعن في تشكلات انصهار اللبان فوق الجمر. انتفخ بداية ما يشبه الرأس وبرزت فيه معالم وجه أنثوي ثم سرعان ما تشكل الجذع، فالساقان. وظلّت الأيدي تُرى بقتامة خلف ما يشبه الثوب، وفوق مواضع عديدة فوق الجمر انتفخت أجسام كروية أخرى أخذت «تتمايع» لتسبح في خطوط ذات مسارات غريبة صفّت في النهاية على صور لشخوص آدمية والقليل من أشكال عمارات ومراكب وحيوانات. ظلت المرأة تنظر بتركيز شديد، تبحث عن شَبه بين المرأة التي فوق النار وبين أية امرأة تعرفها لتردّ عليها سحرها. وحالما ظنت أنها عرفت غريمتها، شدت جسدها إلى الوراء ورمت

بذراعيها إلى الأمام كمن يسد هبة لهب. ثم دنت من المبخر وطفقت تنظر إلى جسد المرأة المسودّ الملقى فوق النار وقالت:

- كنت متيقّنة من أنها هي، هذه الجحودة.

رأيت يد الساحرة تمتدّ إليها بمخرز طويل ولامع، تناولته منها وغرزته حسب إرشاداتها، أولاً في العين اليمنى لامرأة النار، ثم في العين اليسرى لتكشط به أخيراً منطقة الفرج. هنا، نظرت إليّ الساحرة بعينين مغناجتين. منذ تلك اللحظة، لم أبعد عنها نظري. ظللت أطارد عينيها الساحرتين التي لا أظن أن ساحرة ما امتلكت عينين في حلاوتهما. حالما انصرفت المرأة، اقتربتُ من ساحرتي الجميلة وحكيت لها عن أمور لا تصدق ولا علاقة لها بدافعي للقدوم إلى وكرها. سمعت لساني يخبرها بأشياء عني مثل «إنني أنا نفسي ساحر مثلك»، وحكى لها عما أتمتع به من مقدرات لم يتسنّ لسحرة العالم بلوغها بعد، مثل أنه بمقدوري السير حتى بعد أن تغيب الشمس ويعم الكون الظلام كأنني أسير تحت أضواء الشمس. تحدثت هي عن نفسها بثقة الساحرات: (إذا رأيت من بعيد أحجاراً بيضاً فوق رؤوس الصبايا وظننت أنها زبدة لفتتها). قلت لها في سري: «أيتها الساحرة الكاذبة». ثم تدخل لساني قائلاً: «إذا قلت لكل جراد البحر ادخل معدتي لما ملأها». ولا أدري إن كانت قد صدقت ما كان يخطرف به لساني أم لا. كانت تستمع إلي متضعضعة، وأنا آخذ كفها الناعمة مداعباً وجنتيها وشعر الجنيات المصبوغ بالحناء. لا أدري من الذي جرد الآخر، لكنها كانت ترى في نفسها قد أصبحت تلك اللبانة فوق النار. وشعرت

بالساجر الممدد فوقها يكشط بمخرزه عينيها وكل مكان في جسدها. كف لساني عن الكلام، لكنه سمع الساحرة التي صارت تتأوه بفعل اللذة المتدفقة من أنحاء جسدها تتحدّث عن مقدرات الساحر الذي يعيد طيّ جسدها الملتهب وفرده مثل تيلة القطن تقول: «... وتستطيع إغواء الساحرات...»

حالما عرفنا عليه السمسار وقال لنا «هذا هو السائق الذي سيقلّكم»، كنت سأتراجع. إذ عندما صافحناه، كان يتكلم في أمور شتى، ولم يكف عن الحديث النطاط من أمر إلى آخر طوال نصف الساعة التي جلسنا فيها معه في الركن الخفيف الإضاءة بمقهى النسيم وسط مدينة أم درمان. وكان بشكل ما يثور، وبحدّة، خصوصاً حين يأتي الكلام على الورش والميكانيكيين وقطع الغيار المغشوشة وعلى أثمانها الباهظة، وأمور أخرى.

كنت أتمنّى أن يتكلّم عن الرحلة من أم درمان إلى مدينة «الكفرة» الليبية. وعن الطريق، وهل هو آمن أم لا. خصوصاً أنه كانت هناك أحاديث عن نشاط «الهمباتا» الذين يقطعون طريق العربات وعن قساوتهم الشديدة.

وفي سانحة جاءت من السماء، توجه إلي بالحديث وسألني: «من أين أنت أيها الصديق؟»

لم أصدق أنه يمكن أن يكلم أحداً أو يهتم بمن هو حوله. ولهذا، ونتيجة للمفاجأة، بقيت صامتاً للحظات قبل أن أجيب. ظللت أنظر إليه فقط. سمعته يقول لي:

«هل ستتركني أخمّن من أي موطن أنت؟» وواصل: «حسن.

أولاً، هذا أكيد، أنت لست سودانياً ولا صومالياً، لأن الصوماليين جميعهم رشيقون تقريباً ويصلحون، رجالاً ونساءً، للعمل كعارضي أزياء. وأنت ما شاء الله قطعة من عنتر.» صمت للحظات ليرتشف من كوب الشاي، ثم واصل: «أنت واحد من اثنين، إما أن تكون أثيوبياً أو إرترياً.»

- تخمينك صحيح، أنا من...

قاطعني قبل أن أفيده من أي بلد أنا. وسمعته يتكلم:

- أنت من إرتريا. صح؟

- صح جداً جداً.

- ما الذي يحدث عندكم؟ لماذا بلدكم... لا أريد أن أقول يطرد ناسه...

- ظروف يا أخي.

- يا ساتر من شكل الظروف هذه.

- لم تحدّثني عن الرحلة. ماذا يلزم أن نأخذ معنا؟

- زاد لخمسة عشر يوماً، والكثير من الماء.

- حسن. هذا مفهوم. ولكن نطلب منك أن تخفض لنا في التكلفة.

- أنا أراعي ظروف كل الناس، وهناك الكثير من السائقين. إذا وجدتم من يتقاضى أقل مما أتقاضاه أخبروني. اذهبوا واستطلعوا، ثم قولوا لي.

- استطلعنا قبلاً، ونجد أن ما تقوله صحيح. فقط خفّض لنا قليلاً وننطلق معك.

- طيب. ما يخالف، ليخصم كل راكب مائة جنيه، وتجمعوا غداً خارج الخرطوم على طريق الأبيض. هناك قهوة على الطريق، تجدونني بعد غياب الشمس.

حضرنا في الموعد، ووجدناه بانتظارنا داخل مقهى الطريق، ووجدنا معه تسعة مسافرين، بينهم ثلاث فتيات، ليكون عددنا معاً ثلاثة وعشرين فرداً.

سألته: «كيف سيتسنّى لسيارة رانج استيعاب كل هذا العدد؟»

- لا تقلق. مقعدك معي في الأمام.

- ولكن أين المساحة التي ستحمل هذا العدد كلّه؟

لم يجبني، بل أشار إلى الجميع بالصعود. كانت المقاعد قد أزيلت لتوفير مساحة إضافية. انحشر المسافرون وتكدّسوا فوق بعضهم بعضاً، وانحشر معي في المقعد الأمامي شخصان نحيفان. ثم انطلقنا في الطريق نحو مدينة الأبيض التي وصلناها بعد منتصف نهار اليوم التالي. لم ندخل المدينة، بل واصلنا السير عبر طريق وعر ملتف خارجها.

قابلتنا سيارة شرطة قادمة من الاتجاه المعاكس كان فيها شرطيان. حين أصبحا بمحاذاتنا، رأينا وجهيهما ملتفتين نحونا. دارا خلفنا وأشارا لنا بالتوقف.

ترجل السائق ومضى إليهما. لم نسمع ما دار بينهم من حوار، لكن السائق لم يكن راضياً عما أخذاه منه من رشوة مقابل تركه يواصل طريقه. عاد وهو يلعن ويسبّ:

- هـذا كـثـيـر. هـل أنـا أهـرّب مـخـدرات؟ سـلاحـاً؟. . يورانيوم؟. . أولاد الكلبة هؤلاء. . . جاءوا إلى الحياة القحبة. . . ليرتدوا الكاكي هذا. . . ويبتزّوا به الناس. وعملوا لهم قانوناً موجوداً في كل العالم، أن من يعتدي عليهم إبان لبسهم للكاكي الزفت يُعدّ عمله تعدياً على الدولة والقانون. تخيّل، هذا ما تقوله قوانين الشياطين هذه. ولكن نسوا أن هؤلاء سرعان ما يفقدون ذممهم ولا يعود يردعهم قسَم قانوني ولا قسَم على الكتاب. تخيل، يقولون لك إن اعتداء على موظّف بالملابس الرسمية يساوي اعتداء على هيبة القانون. ولا يهم أن يبتزك بشكل وقح وسافر وهو في كسوته المحمية. لماذا لا تقول شيئاً؟ هل أنا أخرّف؟

- لا، أبداً أنا أتأمّل كلامك. إنه شيق للغاية.

قال بنبرة ارتياب:

- هل ترى ذلك؟ طيب أنا. . . (وهو يوازن نظراته بين الطريق وبيني)، اسمع، أنا هنا لا أريد من يتأمل مثل حضرتك يا أفندي. أنا أريد واحداً ونسنجي وصاحب مواضيع ومواضيع وستين مليون كلام.

- من هذه الناحية اطمئن. فالثرثرة التي تسمع عنها ما هي إلا أنا بذاتي. أنا الثرثرة بشحمها وبخارها.

- لا أريدك أن تثرثر يا. . . (ضاحكاً)، هل قلت إن اسمك هو السيد ثرثرة؟

- أنت تعرف اسمي. ولكن لا بأس إن أحببت أن تناديني السيد ثرثرة كما تشاء وعلى أي حال ستكون إضافة جديدة لألقابي الكثيرة.

تناول من الترابزون علبة السجائر، وأخرج منها سيجارتين بعد أن أرخى عجلة القيادة. ناولني واحدة، وبعد أن أشعل سيجارته وهو يراقب بعينيه الطريق، مد لي قداحة حديدية تعمل بالكيروسين، لكنني كنت قد سبقته بإشعال السيجارة بولاعة كانت طوال الطريق في يدي.

مدّ ذراعه عبر النافذة وأصلح وضع المرآة الجانبية، ثم نظر إلى المرآة الجانبية اليمنى. قلت له:

أنت تكثر من النظر إلى المرايا، كمن يسوق وسط عجقة من السيارات. ردّ:

- كأنّك لا ترى الزحام يا صديقي. ألا ترى أن شرطي المرور يكاد يفقد أعصابه؟ وانظر إلى ذلك السيد الذي يسير الهوينا كأنه سيد الطريق. وهذه الحسناء خلفنا تكاد تصطدم بنا. (يضحك) يا للهول، ألا تلاحظ الاختناق المروري الذي أمامنا؟

- ليت الأمر كذلك.

خفض سرعة السيارة قليلاً وهو يدعك بكفه صدره فوق منطقة القلب. وبعد أن زفر بعمق، جاءني صوته:

- وجود السيارات في هذه الأنحاء ليس دلالة حسنة...

أفلت عقب السيجارة من النافذة وانتظرته ليكمل حديثه. ولما لم يفعل، قلت:

- لَمَ تتخوف من ظهور سيارات هنا، أو في أي مكان آخر عموماً؟

- هل سمعت بالهمباتا قط؟

- نعم أسمع بهم، ولكن حسب ظنّي أنهم يركبون الجمال.

- لا يا مستر، الآن هم يمتلكون أحسن أنواع السيارات الصحراوية. ولا تستغرب إن قيل لك إنهم على وشك أن يمتلكوا حتى الطيران.

- إنك تبالغ في هذا ولا شك. هل وصلوا إلى حد امتلاك السيارات؟

- أجل السيارات والأسلحة.

- هذا كلام خطير.

- أخطر من خطير. وهذا ما أريدك أن تتنبه إليه. وإذا ما شاهدت أي أضواء، في الليل خصوصاً، أبلغني كي نحتاط.

- فهمت الآن سبب اهتمامك بالمرايا.

- جيد. وإذا حدث ورأيت سيارة ما تقترب نحونا، ادع ربك وكل الأولياء الصالحين، إن كنت تؤمن بأي أولياء، كي تكتب لنا النجاة.

انقطع الكلام بيني وبينه لفترة ثم جاءني صوته.

- هل تتخيل الأمر؟

- لا يحتاج الأمر إلى كثير خيال. ولكن قل لي، هل سبق أن صادفتهم؟

- لن أقول لك.

- لِمَ؟

- لأنك ستسألني كيف أفلت منهم. صح؟

- صح.

- هنا الإجابة تدخل في صميم أسرار المهنة. وأنا غير مستعد للإفشاء بها.

- طيب. لو افترضنا أنهم صادفونا، ماذا تتوقّع أن يفعلوا معنا؟

- يأخذون الجمل بما حمل. أعني العوض على السيارة. وكل ما نملك. قد يتكرمون عليك بترك قليل من الماء إذا كانوا ناساً أوادم.

- كنت أفكر في المقاومة.

- إلا إذا كنت عنترة زمانك.

كنا نمضي فوق أرض منبسطة نمت فيها أشجار عارية. وكانت سرعة السيارة في أقصاها، وذيل الغبار الذي تثيره يظل معلقاً في الجو. حالما تناهى إلى مسامعنا صوت موّال حزين انبعث من حنجرة أنثوية، قال لي:

- هؤلاء الشباب والشابات الذين معنا، وأنت، ما الذي يدفع بكم إلى كل هذا العناء؟ خصوصاً أن أمامكم رحلة أخرى أشق وأخطر.

- البحر تعني.

- الصحراء أهون. . . أما البحر. . . هذا كون جهنمي. ألا تتفق معي؟

- الصحراء ليست أقل منه.

- لا أقلل من جبروت الصحراء، لكن البحر، يخال إلي أنه لعنة سائلة.

- لا يمكن المفاضلة بينهما، فهذه غولة وذاك بعبع. هل أنت صحراوي يا ناجي؟

- لا أعرف غير عيش الصحراء.

- كلمني عنها. عن عاداتها.

- هراء. لا أحد يعرف عاداتها.

- على الأقل بعضاً منها بحكم نشأتك فيها.

- أكذب عليك إن قلت أعرف الكثير عنها. تفاجئك كل يوم جديد بطور لم تكن قد عهدته فيها.

- أعني أهم عاداتها الثابتة.

- يكفي أنها متاهة. ليس مثل متاهات الأساطير التي أُلفت للتسلية. إذا ثار الرمل، فإنه يصير مثل يوم القيامة، يغير تضاريسها. أتعرف؟ إن رؤية التضاريس وهي تتغير تغيراً جذرياً ليس بالأمر الهين. ليس هناك معالم ثابتة. الكثبان دائمة التنقّل. فما كنت تراه من كثبان عريضة ذات ذيل طويل يستلقي غرباً، تجده بعد لحظات أثراً بعد عين. وتسأل ربك محتاراً، ما الذي يجري؟

لم نكن قد دخلنا مفازة الرمال. كنا نمضي فوق أرض ذات أشجار فقيرة. توجس ناجي من ظهور ما بدا أنه عمود رمل، كانت نفخات الهبوب الخفيفة تعيق علوه مشتتة ذراته في المدى. أوقف السيارة وترجل دون أن يقول لي شيئاً، ابتعد خطوات قليلة وراح يتابع بناظريه الغبار المبدد فوق الأفق.

ولما تيقن أنهم الهمباتا، وثب إلى مقعده وانطلق يسابق الريح.

قلت له:

- الهمباتا. موش كده؟

- لا تشغل بالك. لقد تنبهنا لهم في وقت يتيح لنا الإفلات.

- هذا جيد. لا أعتقد أنهم يسيرون بمثل السرعة التي نتقدم بها.

- ما أدراك؟

- أعتقد أننا نطير.

أزاح اللثام الذي كان يغطي وجهه إلى ما دون الذقن، جرع من باقة العصير وأشعل سيجاراً.

على مدى نصف يوم، ظل العمود المبدد يطير خلفنا. وحتى بعد أن حل الظلام، لم يشعل السائق الأضواء، لكنه خفض السرعة قليلاً. لم نتوقف خلال الليل إلا للحظات مع دخولنا إلى بحار الرمال لتعبئة خزان الوقود من البراميل. وما يؤسف له هو أننا فقدنا عدداً لا يثمن من جالونات الماء، انسكبت لمّا ارتطم جانب السيارة الأيسر بجدار رملي.

مع إطلالة الصباح، قال لي وهو يترجل من السيارة:

- أهلاً بك في الصحراء.

نزل الركاب وتوزعوا في العراء للتبول وقضاء الحاجة وانتهاز الفرصة لإطلاق السيقان، كما لتناول وجبة تم تأجيلها نتيجة الظروف.

هذا هو صباحنا الخامس ولا تزال أمامنا نحو تسعة أو عشرة أيام لبلوغ وجهتنا إذا ما استقامت الأمور ولم ينحرف بها أي طارئ.

صعد السائق فوق سطح السيارة، وأخرج من جراب كان يحمله منظاراً وراح يستطلع عبره جهات الأفق الأربع بحثاً عن أي أثر للغبار الطائر. لم يلحظ أي أمر غريب، لكن لم تعد إليه طمأنينته.

ظل في مكانه على السطح، بينما أشعلنا نحن ناراً في ثلاثة أماكن لطهو الطعام وصنع الشاي.

كانت معنا، من ضمن مجموعة الفتيات، آنسة من إرتريا تدعى ترحاس، أظهرت نشاطاً وعاطفة أمومية باضطلاعها بمهمة الطهو والعناية والاهتمام بأمر الجميع، ما دفع السائق لإطلاق ملاحظة، قال: هذه أم تكفي العالم.

دفنا النيران وغادرنا عندما رأينا من بعيد تويوتا الهمباتا وهي تنهب الأرض نحونا. أشعرت السائق أنه أُخذ من حيث لا يدري.

عندما سمعت صوت أعيرة نارية، قلت له:

- نحن نتعرض للضرب.
- أرى ذلك، ردّ.

كانت سرعتنا تشيد خلفنا جداراً من الغبار، وكانت تفصلنا عن مطاردينا مسافة مطمئنة. كما كنت واثقاً بمقدرة السائق. جاءني صوته بينما مقدمة السيارة تقتحم جبلاً من الرمال:

- إنهم يراهنون على تعطيل السيارة باستهدافها بالرصاص. عدا ذلك، لن يجرؤوا على مطاردتنا أبعد من هذه المسافة. سيعودون على أعقابهم.
- نفسهم طويل مع ضحاياهم، قلت.
- إنه موسم عيد وحصاد بالنسبة إليهم، ردّ.

لا أدري هل ستساعدنا قيامة الصحراء هذه التي ثارت الآن وبلا مقدمات والتي أسدلت على المحيط أثواباً من العتمة، أم ستقدمنا قرابين للهمباتا.

- سننقلب. إنك تسير بلا زمام، قلت.

لم يعرني اهتماماً بل واصل الدوس على ذراع البنزين كمن يدعس رأس حية. لقد استغل ستار الغبار وارتفاعات التلال، وانحرف عن مسار اتجاهنا بزاوية ٤٥ درجة نحو الشمال الشرقي، على أمل أن يعود للمسار بعد ٧٠٠ ميل كما قدّر، لكن مع القلق من إهدار الوقود، ثم القلق على الركاب الذين بدأت صحة بعضهم تتدهور، وظهور أعراض الجفاف والهستيريا الجماعية التي تنفجر فجأة هكذا. فضّل أن يعود إلى الاتجاه الأصلي بعد أن مشينا نصف مسافة السبعمائة ميل تقريباً.

كنت أحس أنه بات يتعجل هبوط الظلام ليحدد موقعه عبر النجوم. لقد خفت حدة ثوران الرمال مع تقدم المساء وانخفاض الحرارة التي استنزفت كل قطرة عرق في أجسادنا. ومع دخول الليل، سكنت الصحراء بعد أن ظلت النهار بطوله منهمكة في نقل تلال رمالها من مكان إلى آخر. أنعستني البرودة وانخفاض سرعة السيارة التي كانت تمضي بلا أضواء، فنمت. كنت من وقت لآخر أستيقظ بفعل الهزات العنيفة للسيارة، ثم أعاود الإغفاءة كرة أخرى. حين استيقظت، كانت السيارة واقفة وسط ظلام دامس، والركاب متناثرين حولها يغطون في النوم. كان غطاء المحرك مرفوعاً لتدخل منه البرودة. استلقيت فوق الرمال، لكنني لم أنم. كنت أدرك أنه أضاع الطريق وإن لم يقل لي ذلك. وهو الآن ينام ولا أدري إن كان قد توصل عبر النجوم إلى تحديد مكان وجودنا.

فقدان الماء، مع فقدان الطريق ولغو الصحراء غير المفهوم من خلال إيقاظها للظى وكل أصناف هوام النار، كفيل بخنق الروح.

نفد الماء ولم نكن ندري أين موقعنا من العالم. كانت سماء الصحراء ترنو إلينا بجمود. وتحولت الأفواه والأنوف إلى مغارات يسكنها الغبار. آخر جرعات ماء نزلت عبر حلقي، وكانت حارة كأنها أنزلت تواً من على موقد، كانت منذ يومين خليا.

إذن، المصيبة الآن تضرب بعنف. والموت الأحمر صار رفيقنا، وخسارات الأرواح بدأت تتوالى. وهذا شاب إرتري آخر اسمه «أسقدوم مسفن» أصبح في النزع الأخير. كانت ترحاس

تخرج الرمل من فمه الجاف وهو غائب عن الوعي. كانت تولج سبابتها في تجويف فمه وتخرج منه الرمل. انحنت عليه واضعة رأسه على ركبتيها لتنزل بصاقها إلى حلقه. أحسست وقتذاك وأنا أنظر إليها أنه لو طلب منها مقاسمته حياتها لما ترددت. ظلت طوال ذلك اليوم القائظ تبلل فمه ببصاقها. أيام من العطش ونحن الآن ندخل منتصف الليل ولم يهتد السائق إلى الطريق. كان كل مرة يوقف السيارة ويصعد إلى أعلى ليستطلع، عله يلمح أضواء سيارات ما أو يلتقط زمجرة محركات.

حتى الآن، مات إرتريان اثنان وصومالي واحد. الصومالي وأحد الإرتريين ماتا في وقت واحد تقريباً. فمنذ طلوع شمس اليوم التاسع، ظلا يصارعان الموت. وعند غروب شمس اليوم التاسع، ماتا بعد نحو ساعة واحدة. الإريتري الثاني توفي في اليوم التالي بعد الغروب. يقال إن العطش يقتل عقب الغروب مباشرة. حين ينقلب الجو ويتحول الطقس إلى البرودة أو الاعتدال، يموت العطشان.

الآنسة ترحاس أسملاش التي هزل جسدها واختفى صوتها نهائياً لم تنكسر عزيمتها في إنقاذ حياة أسقدوم مسفن. ظلت تقطر الترياق في حلقه، وكانت تحرص على إبقائه صاحياً. وفي الصباح الذي دلقت في فمه مقدار جرعة كبيرة من البول على مغارة الرمل التي صارها فمه، كان قد عاد من غيبوبة. أحس لذعة البول الحارقة، وأحس بكل ملح الأرض الذائب في تلك الجرعة التي كانت عنيفة وهي تخترق بلعومه الملتهب. حاول أن يجعل نظراته

إليها من خلال عينيه اللتين اتخذ فيهما الموت مكاناً له، محملة بالكثير من الامتنان. هي أيضاً كانت تود أن تبتسم في وجهه، لكنها أزالت من وجهها تلك الابتسامة التي ودت توليدها بصفاء. لم ترد لها أن تظهر مثل التكشيرات التى رأتها فوق كل الوجوه التي كانت تحاول أن تبتسم. كانت الابتسامات تطفو على الوجوه مثل استغاثات يائسة.

عندما لم يمت في اليوم الحادي عشر، عزمت على أن تبقيه يوماً آخر لعلها تنفرج وتصل المحنة إلى نهايتها. لم تتذكر متى تبولت آخر مرة في الخلاء، لكنها ظلت طوال اليوم الحادي عشر وصباح اليوم الثاني عشر تنتظر مترقبة أن تتحرك مثانتها. وخلال إحدى وقفات السائق، أنزلت سروالها على بعد بضع أذرع من مكان وقوف العربة، واستقبلت القطرات الشحيحة التي تساقطت على كيس نايلون ثم صعدت بها إلى العربة. حالما رأته، خافت عليه كثيراً، وخشيت، إن لم تحدث معجزة ما، فإن هذا الشاب «أسقدوم» الذي كان منذ ثلاثة أشهر ملتحماً في معركة تشبه قيامة مصغرة، في حرب الحدود التي نشبت بين إرتريا وأثيوبيا، هالك لا محالة.

حتى بعد أن فتحت فمه لدفع تلك القطرات الحريفة إلى بلعومه، كان يهذي بصور عن تلك الحرب اللعينة: «كنا نتشابه في كل شيء... فى السحنات... وفي الملابس... وحتى سلاحنا كان يشبه سلاحهم... وكان كل منا يعرف لغة الآخر... وحين نلتحم في الظلام بالسلاح الأبيض... كان جيشهم يقاتل جيشهم

وجيشنا يقاتل نفسه. . . وكنا ندفن قتلانا وقتلاهم معاً، لصعوبة التمييز بيننا وبينهم. وكانوا هم يفعلون الشيء ذاته. . .»

صبت عليه القطرات الحامية في جرعة واحدة. بعدها، رأت فوق محياه ما كان يبدو مثل ابتسامة. كان كمن عادت له الروح.

طال أمد احتضاره، وكنت أفكر أن موته سيمثل طامة لترحاس. أقله، سيدمر معنوياتها، وما لم تحدث معجزة تنقذنا من أهوال الموت عطشاً أو الموت على أيدي السفاكين الذين يطاردوننا، فإنها لن تقاوم؛ ستيبس مثل خرقة بالية وتموت بلا حس.

مرات عديدة ابتلعت الرمال سيارتنا. بيد أن أمرّها كانت لما اعتقدنا أننا أصبحنا في مأمن من اللصوص. كنا حينذاك مدكوكين في الرمال، ولم يتحمس الركاب للنزول ودفع السيارة كما كان الحال في أوقات سابقة.

قال لنا السائق الذي تلبسه اليأس، والذي عندما أماط اللثام عن وجهه رأيته مغطى ببقع متورمة مصبوغة بالدكنة:

- من يرغب في الموت، فلينزل ويرحنا من التعب حالاً. وما لم تدفعوا السيارة الآن، استعدوا ليأكل الرصاص صدوركم. أستطيع من هنا سماع صوت محركهم. تعالوا انظروا إلى الغبار الذي يثيرونه.

وأشار بسبابته المتوترة نحو طبقات عالية من الرمال. رأينا عمود الغبار الذي كان يتأرجح فوق الأفق القصي، والسيارة تحته تسير مثل حشرة مثقلة. تواثب الجميع في حركة لا إرادية، ورحنا

ندفع بما تبقى لنا من حيل. تحررنا بعد جهد واندفعنا نحو المتاهة.

في نهاية اليوم الذي خرجت فيه روح أسقدوم، كان ممدداً فوق أجسادنا. ولما بلغ النزع الأخير، لا أحد يدري من أين واتته كل تلك القوة... شاهدناه ينتفض فجأة ويرمي بوجهه نحو باب السيارة ناوياً النزول. أمسكوا به وفردوا أجسادهم ليتمدّد فوقها. لكنه، بلسانه المتدلي وعينيه الجاحظتين، انتفض جسده كرة أخرى وطار إلى الباب.

أمسكت به ترحاس بعينيها ودموعها، وأعادته ليتمدّد. بعد ذلك انتهى كل شيء. سكن الجسد وتسربت حرارته وحلّت مكانها برودة قتلت الأجساد التي تحتها.

منتصف الليل، أضجعناه تحت طبقة من الرمال ومضينا.

كم مضينا؟ لا أعرف. ولا حتى السائق يعرف. كانت الحمى قد أكلته. قلت في نفسي: «كيف يمرض؟» كانت الشمس تصعد والسيارة واقفة. جاء ليل وطلع نهار ولم يفق السائق من غيبوبته. أعدت ذراعه التي كانت تشوى في الخارج ثم فتّشت في جيوبه عن أي دواء كان يتناوله. لم أجدِ شيئاً. أمطت عنه اللثام، كان وجهه مطبوخاً. وجدت تمرة داخل قبضته المطبقة. رحت ألوكها مع غبار فمي، ثم دسست في فمه كل التمرة بعد أن أبقيت النواة في فمي.

استفاق بصعوبة. نظر إليّ ولم يتكلّم.

قلت للأحياء:

- أَنزلوا الموتى.

كانوا ثلاثة. شققنا لهم الرمل.

- حتى هذه ستموت. هل نرميها؟ قال لي أحدهم، وهو يشير لترحاس. كان يهلوس، والحقيقة أنه كان هو أقرب للموت من ترحاس التي نظرت ناحيته مبلبلة.

حين أراد السائق التحرك، كنت سأرفض حد القتال الصعود كرة أخرى إلى العربة. وكنت سأكون راضياً لو أنهم تركوني ورحلوا. كنت أريد أن أظلّ ممدّداً في الخلاء الصامت. كان يبهرني القمر المتدلي فوق حوافي عيوني. حتى وأنت عطشان لا تملك إلا أن تنبهر بالقمر. فمنظره الباهر يحرضك كآخر مشهد تريد أن تغمض عليه عينيك. أراقبه وهو يبتعد مرتفعاً أذرعاً قليلة... أستوعب ذلك ببطء. لا أدري كم من الوقت أغمي علي، لكن حالما فتحت عيني لم يكن القمر في مكانه، بل كانت هناك شمس فاضحة، وكانت تأتيني أصوات عجزت عن تحديد مصدرها. كانت من الكثرة بحيث اختلط علي أمري وأمرها. هل ما أسمعه من الماضي؟ أم أنها أصوات طازجة طزاجة كل جديد؟

كانت الشمس سيئة جداً ذلك اليوم ، كما حال هذه الصحراء التي استيقظت غاضبة، لتسلط علينا جنونها عواصف رملية.

الآن، أزحف عارياً فوق أرض كمرايا تعكس صورتي للكون... أهرب صوب ممرات مغسولة تشبعني من بللها. لكن لا يهدأ الغبار النشط كمجنون في ثورته الثأرية... الرمل الفائر يوزع علينا لظاه... هبات من رمال محمّاة تكسو جسدي العاري

إلا من سروال قصير واسع الساقين. كنت أتقلب في الحريق الصامت... أستجير نائحاً بصلوات جدي... أسمع من يناديني باسمي... أتلفت بحثاً عن الصوت... لكن لا أحد... يا جدي... ويا صلواتك... ادع لي بالنجاة أو بالرحمة حين تفارقني الروح... ويا للصلوات... ويا لقدرتها على إسكان الأرواح المضطربة.

حالما هبط الليل، لاحت لنا أضواء عمرانية. كانت كثيفة في العمق، متناثرة في الأطراف. نزلنا أمام بيت حجري واسع هبّ من كان بداخله لمعاونتنا حالما تعرفوا على السيارة. أدخلونا إلى هناك. سقونا بداية ماء بجرعات قليلة. ثم بعد فترة جرعات أخرى. أطعمونا خبزاً مذاباً في الحليب. ثم نام من نام. أنا لا أدري ماذا فعلت، لكني كنت أمنّي نفسي بأن يكون ما أراه حقيقة لا حلماً. ولهذا رحت أكلم السيجارة المشتعلة في يدي كثيراً كثيراً بين مضغات خبز الشعير المنقوع في الحليب.

في اليوم التالي، نهض لتفقد سيارته وإصلاح ما لحق بها من عطب. ثالث يوم ودعناه هو ومعارفه الذين اعتنوا بنا وغادرنا المنزل بعد أن دلونا على محطة السيارات.

- أحب أن يرافقني في رحلاتي رجل مثلك، قال لي ناجي وهو يودعني.

- هل ستكرّر مثل هذه الرحلات؟

- إنها مصدر عيشي، رغم ما بها من كوارث. فإنني لا أصلح لأي عمل آخر.

حالما وصلنا إلى طرابلس. انضممنا، أنا وترحاس، إلى الإقامة مع مهاجرين سبقونا، كنا نعرف بعضهم.

في طرابلس، عرفت أسلوب كل سمسار، وحتى اللحظات الأخيرة لم أقرر على أيهم أستقرّ. كان هناك «السمين» وهو معروف بالأمانة والحرص الشديد على حياة من يسافرون على تيتانكاته، وهذه الميزة وصلت إلى أسماع المهاجرين في عموم أفريقيا، خصوصاً في إرتريا والسودان والصومال وغانا وليبيريا. فما إن يصل واحد من هذه البلدان، حتى يتصل به أو بمعاونه ليتمم معه الاتفاق.

سماسرة كثر. بعضهم تميّز بسرعة إنجاز الاتفاق. وكانت لهم كل أسبوع تقريباً تيتانك تغادر إلى الشاطئ الآخر، لكن بلا أي ترتيبات للأمان أو السلامة. ولذا كانت تيتانكاتهم تغرق ويعطب بعضها في عرض البحر. كما كان هناك من ينتحلون أدوار السماسرة ويختفون حال حصولهم على المبالغ من سيئي الطالع من المهاجرين.

الأمسية التي قررت فيها المغادرة حدثت صدفة. إذ إنني لم أكن قد خططت لها، ولم تخطط لها حتى ترحاس. رأيت بعض المهاجرين يركبون سيارة (الإفيكو) التي توقفت أمام باب المنزل. قلت لهم:

- هل تغادرون؟

- نعم، أجابني أحدهم على عجل، ومرق من الباب.

قدّرت ما أنا عليه، وكان رأسي يعمل بسرعة، وخلصت بأنه

عليّ مرافقتهم؛ فإن بقيت أسبوعاً آخر ستدخل مصاريفي المنطقة الحمراء أي تتعدّى الألف دولار قيمة رحلة التيتانك. وهذا خطر جداً، وقد لا أسافر مطلقاً إذا نقص المبلغ دولاراً واحداً.

خطفتُ بسرعة كيس النايلون خاصّتي. وخطفت ترحاس حقيبتها الصغيرة وقفزنا إلى سيارة الإيفكو التي تركت الآن الطريق الرئيس وسلكت بنا طريقاً فرعياً ضيقاً يخترق عدداً من المزارع، تسبقها سيارة «بى ام دبليو» سوداء اللون يستقلّها رجلان كانا ينتظراننا عند المفترق الذي انفصلنا فيه عن الطريق الرئيس.

وعقب مسيرة ليست بالطويلة، انحرفت السيارة ناحية اليسار سالكة درباً ترابية نبتت على جانبيها حشائش قصيرة جافة. كانت بطيئة ومتهالكة. وكانت تتمايل كثيراً وهي تسير عبر تلك الدرب، قبل أن تتوقف أمام حوش أرضي بجانب السيارة السوداء.

نزل من البي إم دبليو شخصان، أحدهما ممتلئ الجسم قصير القامة، يضع نظارات سوداء عريضة وتتدلى من حزام بنطاله الجينز حزمة مفاتيح كثيرة. أما الآخر، فقد كان بضعف عمر الأول، طويل القامة ممشوقها، له ملامح قاسية، مع نظرات مرتابة.

فتح لنا الأول باب السيارة وطلب منا بصوت حازم النزول في صف واحد والتوجه نحو الحوش بدون «دوشة».

كنت أنا في أول الصف. سرت باتجاه المدخل يتبعني الآخرون في صمت. كانت كفي الممسكة بكيس النايلون الذي حشرت فيه حوائجي متعرقة. كان به بنطال واحد، وقميص اشتريته

في آخر لحظة قبل أن نغادر طرابلس. كان به أيضاً أدوات حلاقة وقاموس جيب إنجليزي - إنجليزي إضافة إلى حذاء رياضي.

لما رآني الرجل الصارم الملامح متردداً في الدخول، أشار إلي بنزق أن أدخل. دفعت دلفة الباب اليمني برفق، فانفتحت وانفتحت معها الدلفة الأخرى. دخلت ودخل خلفي الباقون واحداً واحداً.

كان وسط الحوش عبارة عن ساحة واسعة مربعة، وكانت كل الحجرات الثماني التي كانت كل أبوابها مفتوحة عند دخولنا تطل جميعها على الساحة. الحمّام عند يمين الداخل، والمطبخ ناحية اليسار قريباً من المدخل.

ملابس كثيرة مبعثرة في الأنحاء. حقائب مختلفة الأحجام والأشكال مرمية، بعضها نصف فارغ، والبعض الآخر منتفخ. بعضها قديم جداً وبعضها جديد. كذلك مجموعة من الأسرّة الحديدية العارية مكومة بلا نظام، أو مسندة إلى الجدران.

الغرف من الداخل في حالة من الفوضى. تحوي مزيداً من قطع الملابس المبعثرة، وأحذية أطفال ورجال ونساء من مختلف الأحجام. عبوات من علب مجهولة المحتويات، باقات بها سوائل، أكواب شاي زجاجية وأباريق، وقناني فارغة. ساعات يد معطلة، وجوارب وباروكات وفوط نسائية مستعملة. كميات من السكر داخل أكياس النايلون، أدوات حلاقة، وعقود مزيفة وأدوات زينة نسائية. ملابس داخلية متسخة، وعلب سجائر فارغة وغريبة الشكل.

البطاطين كانت موضوعة بإهمال على الأرضيات، والملابس بعضها كان معلقاً بمسامير. لا أدري لماذا دُقّت كل تلك المسامير التي كانت تشبه برؤوسها الصغيرة رؤوس البراغيث.

حين يصيبني الضجر كنت أتسلى بعدّها. همست لي ترحاس التي كانت حريصة على ملازمتي بقدر ما كنت أنا حريصاً على ذلك:

- انظر إلى كل هذه الأشياء، لقد خلّفتها الرحلات التي سبقتنا.

- نحن أيضاً سنترك الكثير هنا.

دخل الرجلان وطلبا منا التجمع وسط الساحة. خرجنا من الغرف ووقفنا هناك كما أُمرنا. في هذه الأثناء، دلف من الباب رجل أشيب الشعر، ووقف جنب الرجلين بعد أن لوّح للجميع بذراعه بتحية خفيفة، وراح يتمتم مع رجليه عن خطة لإحضار بقية الدفعة وعن الملاح والمركب الذي سيقلّنا إلى الشاطئ الآخر.

بدأ الرجل القصير الذي كان يمسك قلماً وورقة بتدوين أسمائنا بينما كان الرجل الصارم يستحصل منا على مبلغ ألف دولار للفرد الواحد. كنّا ٢٥ فرداً من إرتريا وقلّة من جنسيات متفرقة. ظل الرجل الأشيب يراقب عملية التسجيل والدفع.

حيرني منظر يدَي أحد المهاجرين؛ كانتا ترتجفان وكان أنفه يقطر وهو يضع المبلغ في يد السمسار. أنا أدرك معنى أن ترتجف يد الإنسان، ولكن أن يرسل أنفه كل تلك القطرات وفى ذلك الحر هو ما يحير في الأمر حقاً.

لكن حيرتي سرعان ما زالت عندما أعاد السمسار ما يزيد عن نصف المبلغ إلى المهاجر قائلاً له: هذه مزيفة.

اضطرب المهاجر وأوشك أن يبكي، خصوصاً عندما برهن السمسار على أن بعض الأوراق كانت «مضروبة»، زائفة. أمسك بها تحت صنبور الماء وراحت رويداً رويداً تفقد ألوانها إلى إن صارت مجرد أوراق سادة ليس إلا. لكنني كنت متأكّداً من أن المهاجر يعرف أن جزءاً من أمواله تلك كانت مزيفة. استنبطت هذا من رجفة يديه إبان دفعه للمبلغ.

عقب الانتهاء من كل هذا، قال الرجل القصير وهو يطوي الورقة:

- «الزموا أماكنكم. ممنوع الخروج من المنزل، سنغلق الباب من الخارج. أبقوا أحاديثكم منخفضة. ليس هناك من يأتي إلى هنا إلا واحد منا نحن الثلاثة».

قال هذا وانصرفوا بعد أن أغلقوا الباب من الخارج. انتصف النهار. لاذ الجميع من هجير أغسطس/آب بالغرف. تمكنت من إغماض عيني وأنا أطارد شكوكي ومخاوفي من أن نكون وقعنا ضحية احتيال. في مثل هذه الحالات تهجم كل الأسئلة وكل الشكوك، ومن المحال أن تغادر الروح. هل سيصدُق السماسرة؟ أو سيختفون ومعهم المبالغ؟ ومتى ستتمّ الرحلة أصلاً؟ هل سيكون المركب آمناً أو ستظهر الثقوب كالعادة وسط اليم؟ هل نحن في مأمن من أعين الشرطة؟ هل سيداهمون المنزل ويخرجوننا مكبلين

وتضيع علينا أموالنا؟ وماذا عن البحر؟ هل ينتظرنا بفارغ الصبر ليقدمنا قرابين لآلهته؟

تحت وقع هذه الأسئلة أغمضت عيني. ولما فتحتهما بعد نحو الساعة، كان الحر لا يزال على حاله.

خرجت ووضعت رأسي تحت صنبور الماء. مكثت تحته بضع دقائق أحسست بعدها بالانتعاش. كنت أتمشى في الساحة، مقلباً الأشياء المبعثرة محاولاً استنطاقها، ومتخيلاً هيئات أصحابها. أين انتهت بهم المقادير؟ هل عبروا؟ أم افترستهم الأسماك؟ هل سافروا حقاً؟ أو عادوا أدراجهم نحو بلدانهم؟ والتقطت من الأرضية مجلة إنكليزية انفلت من وسطها ظرف رسائل عادي. كان مفتوحاً وبداخله رسالة مكونة من عدة صفحات مكتوبة بالإنجليزية ومؤرخة في ١٢/٣/١٩٩٨ وموجهة إلى العزيزة مالفنيتا. تقول بعد السلام والأشواق: «إذا وصلتك رسالتي هذه التي ستطلعك على تفاصيل رحلتي من نيجيريا إلي شواطئ المتوسّط في الشمال الأفريقي، أرجو ألا تدفعك إلى الحزن أو الخوف علي. وأتمنّى ألا تسقط دمعاتك الغالية».

وقرأت في مكان آخر: «حبيبتي... لا تحسبي أنني سأخفي عليك أمراً مما مررت به، فإن مجرد إحساسي بأنك تشاركينني هذه التفاصيل يمنحني القوة».

توجهت بالرسالة صوب الحجرة التي اختارتها ترحاس. كانت تصلح مكاناً لتفرشه ببعض البطانيات، وكانت النفايات متراكمة في كل مكان. أصلحنا معاً نصف مساحة الحجرة تقريباً، ثم مددت

بالرسالة إليها. بدأت تقرأ: «لقد واجهت الموت مرة واحدة خلال رحلتي في الصحراء. كنا في السيارة. وكان معنا رجال يتكلمون بلغة لا أعرفها. فجأة ارتفع بينهم النقاش وأحياناً التحام بالأيدي، وكنا نحن في حيرة من أمرنا. كانوا يتحدثون فيما بينهم بنفاد صبر، وخمنت أن الخلاف بينهم لا بدّ أن يكون سببه المال، لأنهم كانوا يكثرون من كلمات مثل «دولار»، و«فرنك»، وكانوا أحياناً يشيرون بأيديهم نحونا ويختلفون حول ذلك بشدّة. عرفت في النهاية أن الخلاف كان حول من يحصل على ما معنا من أموال.

كنت أتحين الفرصة لأقفز من السيارة التي كانت تسير بتثاقل على رمال الصحراء. ارتفع نقاشهم فجأة. بعدها، أخرج أحدهم مسدساً من جرابه وأفرغه في رأس من كان يبادله حدة النقاش. عند ذلك، لم يكن أمامي غير القفز. وهذا ما أقدمت عليه ومعي ثلاثة شبان أرادوا النجاة بأنفسهم. عدونا بأقصى سرعة بعيداً عن السيارة التي توقّفت. وكان تبادل الرصاص يسمع بوضوح، حتى أنهم أطلقوا علينا عدة أعيرة، لكنها لم تصبنا.

طوت ترحاس الرسالة وهي تقول:

- يا لها من تجربة.

انقضى النهار بطيئاً وها نحن عند مغيب الشمس؛ لم يأت أي من الرجال الذين وعدونا بإحضار ما يؤكل. حين حل الظلام، اكتشفنا أن إضاءة بعض الغرف كانت مقطوعة بسبب احتراق فيوزات النيون. على جدران المطبخ الذي كان مضاءً، رأت

ترحاس أمراً أدهشها. لما دخلتُ كانت تكفكف دموعها. فكرتُ: تذكرت عائلتها. وعلقتُ بصوت مسموع: البكاء وسط مطبخ فارغ. التفتت ناحيتي بعد أن مسحت خديها من آثار الدموع وأشارت نحو الجدار قائلة: اقرأ.

«يا للهول»، قلتُ وأنا أمرّر ناظري سريعاً على الكتابات التذكارية الكثيرة التي سجلها المهاجرون على مدى سنوات قبيل ركوبهم البحر؛ حملت مخاوفهم وأحاسيسهم، وبينت شخصياتهم وفلسفاتهم، والأهم كان الصدق في التعبير عن النفس حين تكون على مفترق الطرق. احتلّت كامل جدران المطبخ الأربعة وكانت بخليط من اللغات: العربية والفرنسية والإنكليزية والأمهرية والتغرية. تجيد ترحاس مثلي اللغتين الأخيرتين إضافة إلى الإنكليزية، وأزيد عليها أنا معرفتي بالعربية. قرأنا معاً تذكارية بالتغرية، ثُبّت في نهايتها تاريخ كتابتها وهو الأول من مايو/أيار ١٩٩٩. كانت لافتة بخطها الأنيق: «إلى أين تأخذينني أيتها الساعات القادمة؟» وقّع الكاتب أسمه: مجهول. وتذكارية ثانية حررت بالفرنسية لم يمر على كتابتها سوى أيام معدودة: «لماذا المسافة من الساحل إلى الساحل ليست سهلة كما تبدو على الخرائط؟» وأخرى بالعربية وبخط أنثوي «سامحني يا حمودي». حين ترجمتها لترحاس انسكبت دموعها مدراراً. قلت: قد يكون حمودي هذا زوجاً، أو عشيقاً، أو صديقاً.

- «وقد يكون ابنها. ويا ويلي، قد يكون رضيعاً تركته لخشيتها عليه من الرحلة. أنا أعرف بعض الأمهات الإرتريات

والصوماليات اللواتي تركن وراءهن فلذات أكبادهن. لا تتصور ما يكتنف حياتهن من عذابات.»

أطرف التذكارات خُطّ بالفرنسية وترجمه لنا علال المروكي: «تاريخ مغادرة جلالتنا بحراً هو...»

نترقب أن يفتح الباب في أي لحظة. لقد نفد الطعام، والشيء الوحيد الذي كان متوافراً هو ماء الماسورة. كانت مرتفعة تصب على حوض إسمنتي في الأرض فتح فيه مجرى يأخذ المياه إلى الخارج.

خلال لفحات الحر، كان المهاجرون يضعون رؤوسهم تحت مياهها القوية، وأحياناً يستحم تحتها الأطفال بصخب.

منذ الأمس لم تبرح مكانها. كانت دائماً متعرقة وخائرة القوة. دخلت إلى الحجرة التي تشاركها بها نساء وفتيات. تبادلت معهن أطراف الحديث. كنت أتفاهم مع بعضهن بالإشارة لعدم وجود لغة مشتركة بيننا، لا سيّما المهاجرات من غرب أفريقيا، اللواتي يتكلمن الفرنسية أو لغاتهن المحلية.

أحسست أن المرأة ليست على ما يرام. رأيت في عينيها الخابيتين خوفاً مروعاً عزوته لهلع الساعات الأخيرة. الأمر نفسه الذي عاناه سيد من شرق أفريقيا اسمه «جون» في وقت لاحق، حيث انفلت زمام أعصابه وخلع كل ملابسه وسط الساحة، ما تطلب منا قوة لم نكن نملكها لنمسك عليه ثيابه. كان الرجال الثلاثة حاضرين حينذاك. قال الرجل الأشيب وسط صراعنا المرير للسيطرة على جون: «استر روحك يا بني آدم.»

تبادلت الحديث مع المرأة التي أتت من كردستان العراق بالعربية. قالت لي إن زوجها فضل أن تسافر هي أولاً، ويلحق بها عند نهاية هذا الصيف أو الصيف التالي حالما يتدبر تكاليف الرحلة، «لأن المال الذي كان معنا قد نفد ولم يتبق منه سوى ما يغطي سفرة فرد واحد». ثم أخبرتني أنها تعاني أوجاعاً منذ مدّة، واشتدت عليها في هذين اليومين.

إحدى الفتيات من السنغال التقطت الحديث: «أنت مدام صحة كويس، لازم هذا وجع ينزل أرض». ونقرت بطرف أصابعها بلاط الحجرة. ابتسمت السيدة الكردية واحتضنت بين كفيها يدَي الفتاة السنغالية اللتين امتدتا إليها.

تركتهن يتفاهمن بلغة المشاعر الإنسانية، وبدا لي أن حضوري ساعد في إخراجهن من السكون الذي كان يلفهن.

لقد أقلقني وضع المرأة التي بدت هزيلة وخائفة. لا سمح الله، فإنه لو ساءت حالتها، لا نعرف كيف ننقلها إلى المستشفى. وربما تكتشف الشرطة مخبأنا، وندخل في دوامة لا نرغب أن تجرفنا وتجرف معها كل الأحلام البسيطة لعشرات التعساء هؤلاء.

وتحسباً للأمر، قررت أن أفاتح السماسرة بشأن صحتها حالما يأتون، فهم حتماً سيتدبرون أمر علاجها. لقد مروا بالتأكيد مع عملائهم بتجارب مماثلة، فالناس تمرض في كل الأحوال.

كانت الشمس قد حميت. وكان زليج الساحة ينفث لهباً، كأنه مفروش فوق بساط من جمر متوقد.

لا أدري لماذا أشتهي الآن ترحاس كل هذا الاشتهاء! وفي

هذا المكان بالذات، ووسط هذه الظروف. لكنني على الرغم من جموح الرغبة، لم أبادر حتى إلى خطف قبلة كنت أرى أن من حقي الظفر بها. تساءلت وأنا أنظر إليها: لماذا تحرقني هذه الرغبة الآن؟ هل هي الغريزة التي تقودني إلى استغلال كل ما هو متاح، قبيل رحلة قد تكون نهايتها الفناء؟ هل بذلك تنطبق عليّ حكاية ما يقال من أن بعض الرجال الذين يشارفون الهلاك، خصوصاً من هم على شاكلتي - من لم يكملوا نصف دِينهم - تستيقظ لديهم غريزة «حفظ النوع» في لحظات الاحتضار، فينتصب منهم العضو ويظلّ هكذا إلى ما بعد خروج الروح.

كنت في مساء الرغبة ذاك أبحث في قاموس الجيب عن مفردة مرت عليّ في بيت شعر لـ «شلي». رحت أقلب صفحات القاموس الذي تخلعت أوراقه وتداخلت في غير ترتيب. وما حدث تالياً سجلته بعد سنوات على كراستي التي تقبع بين يدي في هذه اللحظة على النحو الآتي: شعر بها تجلس إلى جواره تبحث معه عن الكلمة. أحسّ بملامسة جسديهما وانقداح الشرارة التي أشعلت الرغبة. يجب أن أخمد هذا المسعور، قالت لنفسها حين أحست هي أيضاً بضجيج الجسد الذي لا يرد. كانت أصابعه مفاتيح لجسدها. مفاتيح كثيرة لا حصر لها. أولجها في الثقوب، مفتاحاً مفتاحاً. كانت ممرّات روحيهما تضاء دفعة واحدة.

هذه الفتاة التي أسحب من جوارها الآن جسدي المتصبب عرقاً بعد أن نفضت الغبار من على لافتات شهوتها، والتي جعلت تنظر إلي بدهشة كأنني ذكرتها فجأة بأنوثتها. أستغرب كل

الاستغراب من نفسي عدم معرفة الكثير عنها وعن حياتها وعن أُسرتها، خصوصاً عن أبيها الذي رأته لأول مرة في حياتها قبل نحو عامين، حين بلغت السابعة عشرة من عمرها. سمعتُ عن حياته روايتين متناقضتين تمام التناقض، الأولى رواها على مسمعي الراحل «أسقدوم مسفن» في الأيام الأولى من رحلتنا الصحراوية، والثانية سمعتها على لسان ترحاس نفسها، تنزع عن سيرته كل شوائب القصة التي أفضى بها إليّ أسقدوم مسفن عن أبيها، ولا أدري أياً من الروايتين أصدق. ففي الأولى، ما هذا الأب الذي احتضن ابنته حين التقاها لأول مرة برقة وسط دموعه التي ساحت وجرت على وجهه المليء بالندوب، مثل مجاري الخريف. تصوره رجلاً قاسياً هجر أُمها الحامل بها سعياً للاغتناء من عمل اللصوصية الذي لم يربح منه غير الندوب حسبما حكى لي أسقدوم. قال: عمل السيد اسملاش بداية حياته في تجارة الملح بين إرتريا والهضبة الأثيوبية، حقق خلالها بعض النجاحات، لكن الثراء الفاحش الذي رآه لدى بعض السكان هناك جراء امتهانهم أعمال اللصوصية أغراه بتجربة حظّه في هذا المضمار، وقرّر من فوره الانضمام إلى لواء إحدى عصابات سرقة الأبقار من المنخفضات الإرترية في إقليمي «بركة والقاش». وبالطبيعة، لا يغنم اللصوص دائماً، لا سيّما حين يواجهون رعاة يفضّلون الموت على فقد أبقارهم. وهكذا بعد عدةّ سنوات قضاها في كنف العصابة، عاد خالي الوفاض إلا من الجراح الغائرة.

هذه هي حكاية السيد اسملاش حسبما يرويها أسقدوم، وأنا

هنا أميل لإهمالها وقبول رواية ترحاس عن والدها، لأن حكاية أسقدوم لم تكن سوى نوع من العقاب المعنوي يسلطه المجتمع على رجل هجر زوجته الحامل.

أخيراً، عند اقتراب منتصف الليل، جاء الرجلان. أحضرا لنا خبزاً وعلب التونة، والأجبان، وصناديق مشروبات غازية، وعلب «هريسة» حمراء. الكمّية التي جلباها في سيارة نقل صغيرة كانت كبيرة جداً، طلب منا إنزالها بسرعة لأن هناك مجموعات أخرى قادمة.

حين سألت الرجل الصارم عن الموعد التقريبي للإبحار، ردّ علي: «لا أعرف، وليس هناك من يعرف». عقب إنزال المؤونة بنحو ساعة تقريباً، توقفت حافلة كبيرة أمام المنزل، أداروا مفتاح الباب من الخارج، فانفتح وتدفقت عبره إلى الساحة الداخلية مجموعة هائلة من الناس. وما ظننت أنه كان سيارة واحدة كان في الحقيقة ثلاثة باصات جلبت مائة وخمسة عشر فرداً، نساء ورجالاً من جنسيات مختلفة، أفريقية وعربية من المغرب وتونس والجزائر ومن أم الدنيا، من بينهم طبيب صيدلاني كان المصريون ينادونه بالدكتور «عرفات»؛ وكذلك أكراداً من العراق وأفراداً كتومين من بنغلادش غادروا ليلاً منشآت شركتهم.

وكالعادة دخل الرجال، بحثوا عن حجرة مضاءة، وراحوا يدونون الأسماء ويستلمون المبالغ.

صباح اليوم التالي، نهضت مبكراً، وهي أسوأ عاداتي التي رفضت تطليقي. وأن تنهض باكراً ولا تجد فنجان قهوة، فهذا

تعذيب ما بعده تعذيب. فانعدام الشاي والقهوة، إضافة إلى توقع أن تنفد السجائر، وهو ما يحصل الآن فعلاً، هذه الأشياء رغم بساطتها تشعرك بالحرمان وتدفعك إلى لعن العالم ولعن نفسك بصمت.

خرجت إلى الساحة التي كانت تنام في أطرافها مجموعات من دفعة الأمس. بعضهم أسند رأسه إلى الحقائب، وبعضهم الآخر نام على الأسرة العارية. قضينا نهارنا الثاني محبوسين داخل نطاق المنزل.

حين قدم الرجال عند منتصف النهار بعد أن أبلغناهم عن حالة المرأة المتوعكة، عبرت لهم عن شكواي من انعدام القهوة والشاي.

رد عليّ أحدهم: «هذه خدمات زائدة لا نقدمها هنا. ويجب أن أذكرك أن هذا المكان ليس فندقاً بخمس نجوم.» وأضاف: «أريد أن أنبه الجميع، مسؤوليتي هي وضعكم على المركب فقط.»

وأنا أناوله ورقة العشرين ديناراً قلت له:

- لقد نفدت سجائري. أرجوك، هاك اجلب لي خرطوشة دخان.

- هذا ممكن. قال وهو يهم بالمغادرة.

طوال الأيام التي سبقت مجيئنا إلى هنا، كنا ننهمك في متابعة أخبار الطقس. بالطبع، لم تكن تهمنا درجات الحرارة، بل حركة

الرياح، وسرعتها، وعلو الأمواج، ودرجة الرؤية في حوض المتوسط. كنا نتابعها عبر فضائيات مالطا، وليبيا وتونس وإيطاليا.

كانت نشرات الطقس تتنبأ باستقرار مياه المتوسّط، وحين تنتهي نشرة الطقس على فضائية ما، كنا ننتقل إلى فضائية أخرى، لنقارن بين ما تقوله النشرات المختلفة.

كانت قنوات الرآي الإيطالية تقدم في صدر نشراتها أخبار غرق المراكب وتعرض صور الناجين. أجساد الموتى مغطاة بإهمال، كأنها جثث من حروب الشوارع. وكان على المرء أن ينظر إلى ما تنقله الكاميرا من الوجوه ليعرف مقدار الرعب والمحنة التي عانوها.

وقبل أن نأوي إلى النوم، كنا نراجع ما تورده تلك النشرات، لا سيّما تلك التي تغطّي تنبّؤاتها حالة طقس المتوسّط لكامل الأسبوع القادم. كنا نفرح حين يكون البحر هادئاً، فيردد البعض منا وقد ركبته الحماسة: سمن ساكن يا أخوانا، من هنا وحتى أسبوع أو أكثر، هادئ كأن مياهه سمن ممدد. ويجاوبه آخر: زي السمن يا بحر زي السمن. ويرد عطية المصري: البحر كداب كبير. سمن إيه وهباب إيه. ده مرّ أوي، وعلقم كمان. يتلقف الحوار المروكي الهابط من قمم جبال الأطلس: أنا معاك في كلامك يا المصري. البحر قتال.

- ينصر دينك يا مروكي. أيوه، قاتل مع سبق الإصرار والترصّد.

- وتأكيدات النشرات، هل نرميها في القمامة؟ أتدخل أنا،

ليس بقصد ثنيهم بل لدفع عطية المصري، أبو كلام، لمزيد من الكلام.

- إنت يجي منك كلام زي ده؟ مش قالوا إنك متعلم. كيف يخدعك كلام فضائيات؟ قالك ساكن قال. سكون البحر تمثيلية للاستدراج وراحت على من يصدق. سامعنّي يا عالم؟..

يقاطعه شاب جزائري:

- واش هالهدرة المرة يا سي عطية؟

- أنا كنت صياد، وأعرف البحر ويعرفني... يا ما خدع ناس رياسة، ورياسة بصحّ وصحيح.

قلت له:

- قل كلام يفرح القلب يا ريس عطية...

قاطعني:

- يعني أكدب عليك؟ لا يا خويا... شوف حد تاني يكدب عليك ويطمنك.

صمت وهو ينظر إلى حلقة الإرتريين الجالسين حول التلفزيون وواصل: إنتو جماعة إرتريا مش سميتوا المراكب دي «تايتانيكات»؟ التيتانك يعني.

- طبعاً نحن سميناها تايتانيكات.

- يخرب بيت أبوكم. إزاي جمعتوها كدا تايتانيكات؟ انتوا معاكم سيبويه هنا؟

- المفروض نسميها إيه يا عطية؟

- اسم حنين كده. يعني، سفينة نوح مثلاً، أو أي سفينة ثانية ما تغرقش. ما تتكلم! سكتّ ليه؟

- أتكلم أقول إيه؟ كفاية وأنت سيد العارفين.

- مادام كده... أنتو عارفين إن نسبة غرق التايتانيك بتاعكو ده هي ٧٠ في المية. معنى كده نسبة السلامة فيها قول أقل من أربعين في المية. يعني كده كده التايتانيك اسم صحيح وينطبق على المسمى. تايتانيك يعني تايتا... نيك.

كان يشدّد على نطق المقطع الثاني، بحيث أصبح له وقع عدم الحياء. فتنهمر عليه التعليقات اللاذعة والاحتجاجات الغاضبة. وتستمرّ حتى آخر الليل ولا تنتهي إلا بنوم آخر فرد.

كان ضمن الدفعة الثانية شاب فارع الطول ونحيل. يضع على رأسه طاقية «كاب» من «الكاكي» بحواف دائرية. كان نائماً متوسداً حقيبته الصغيرة على أرضية الساحة العارية. وكانت إلى جانبه ترقد آلة غيتار طويلة داخل جراب جلدي داكن بدت عليها آثار قدم. أيقظته أشعة الشمس... تمطى في مرقده قليلاً، ثم نهض. أصلح وضع نظارته وأسند الغيتار إلى الجدار القريب. كان الحمام الوحيد مشغولاً، وكان الناس ينتظرون دورهم.

- صباح الخير «مالوك»، هل نمت جيداً؟ قال له أحدهم.

- صباح الخير سيدي، صباح الخير يا سادتي. إن كان هناك من نام جيداً فليدلني على الوصفة وأكن له من الشاكرين.

- لا أحد ينام هنا جيداً يا مالوك. كنت طوال الليل أعد النجوم.

- أنت أيضاً؟ يا إلهي. . . أنا نفسي كنت أعد النجوم. وكان نومي سيئاً، وحلمت بطيور جميلة كانت تملأ السماء. كانت تخرج من البحر، تصعد عالياً ولا تعود.

بعد أن عاد مالوك من الحمام، التقط حقيبته الصغيرة وغيتاره وغاب في إحدى الغرف. لحقت به إلى هناك وقدمت نفسي: «أهلاً أيها الصديق، أنا أبدار من إرتريا.»

- أهلاً. أنا الشريد سوانيق مالوك سوانيق من ليبيريا.

قلت له:

- اسمك جميل يا مالوك. مالوك، مالوك إنه حقاً اسم جميل.

- كان يحمله جدي السادس عشر من قبل. سحبه أبي من تلك القرون السحيقة وألصقه بي.

- أتقول ألصقه بك؟

- أجل. فعل ذلك تيمّناً بجدنا الأول مالوك. كان رجلاً مميّزاً في عصره، أتصدّق؟ تقول عنه الحكايات إنه قد أفنى ردحاً من عمره في بناء سفينة عملاقة ليجوب بها عباب المحيط لاسترداد زوجته التي هجم عليها قراصنة محليون. كان قد حدد فوقها أماكن تمركز رماة الأسهم السامة، وهيأ قمرة خاصة لتشغلها زوجته المستعادة. وعلى الرغم من تعبه وإصراره على استرداد زوجته التي كان يعبدها، لم يتمكن مالوك، كما يحكي الرواة، من الإبحار بسفينته، لأنه كان توفّي بعد أن أتمّ بناءها.

- تراجيديا. هذه تراجيديا يا مالوك.

- نعم إنها تراجيديا مثل التي نعيشها أنا وأنت. تلك كانت تراجيديا في زمانها وظروفها، لكن التراجيديا الحية هي هذه، تراجيديتنا نحن.

قلت:

- قل لي يا مالوك، هل أنت قلق من الرحلة؟

- ومن لا يقلق؟ فهي محفوفة بالمخاطر يا صديقي. هذا الأمر خاضع للحظ وحده ولا شيء آخر. هل سمعت بالمركب التعس الذي غرق فيه مائة وسبعون شخصاً؟

- نعم. وفقدت فيه للأسف أحد أعزّ أصدقائي. لقد عثروا على جثته ضمن الجثث التي خرجت إلى الشواطئ التونسية.

- آسف بشأن صديقك. هذه نكبة، قال وهو يربت كتفي.

- لم أستوعب الأمر بعد، ولم أبك عليه كفاية.

- آه... كم هو مِؤلم عدم القدرة على بكاء رحيل عزيز.

- صحيح... متى غادرت ليبيريا يا مالوك؟

- أحب ليبيريا... لم أغادرها بعد يا أبدار. أحبها ليبيريتي. كيف أغادرها وهي تسكن ها هنا، تماماً في القلب؟!

كان صوته مليئاً بالشجن، وكان مثل متهم أمام قاض يدافع بحرقة عن براءته ونزاهته التي لطخت كيداً.

أردت تغيير الحديث بالتطرق إلى مواضيع أخرى، وتخيرت ما ظننت أنه ألطفها. لكنني كنت كمن صب تواً الزيت على اللهب.

- هل أحببت يا مالوك؟

- نعم أحببت.

- كيف كانت؟

- جميلة.

- أين هي الآن؟

صمت طويلاً، قبل أن يجيب. رأيت عينيه تغرورقان بالدمع وذقنه ترتجف. أجابني بكلمات مخنوقة:

- لقد خسرتها. ماتت حلوتي «وانينابندا» قتلوها، الأبالسة الذين قتلوا ليبيريا.

قال هذا وراح في نشيج مر. كانت دموعه ثخينة، واقتربت منه مواسياً. كان الندم الذي أحسسته شديداً بسبب تقليبي لمواجع الرجل، وإن كنت أود في قرارة نفسي أن أعرف كيف ماتت الآنسة «وانينابندا». لكنني فضلت عدم الخوض في ذلك خشية إيقاظ آلام دفينة أُخرى، خصوصاً وأنها ذكريات لأحداث مقيتة، لها حبال متصلة ببراكين الحزن التي تلوح خامدة، لكن ما إن تمسها ولو مساً خفيفا حتى تبدأ بالاهتزاز لتطفو أحزان الروح.

كانت زقزقات عصافير فوق أعشاشها تصل إلى مسامعنا.

قال مالوك معلّقاً:

«آه...

لو أن هذا التغريد لا ينبش

مكامن الشجن

لو العصافير

لا تذكر بالسفر

أو موت

البحار؟»

- هل هذا شعر يا مالوك؟ قلت وأنا أستظهر المقطع.

- قل إنها حرقة. هكذا رد.

مددت ذراعي ممرراً رؤوس أصابعي على أوتار الغيتار الذي كان قريباً مني.

قال لي:

- أتصدق؟ هذا الغيتار كان يوماً ما أطول مني. كان عمري ١٤ عاماً حين منح لي كجائزة في مسابقة فنية للعزف والغناء على مستوى محافظة نواحي المحيط. أحمله معي كتذكار أينما ذهبت. مرة سلبني لصوص كل ما كان معي. رجوتهم أن يتركوا لي غيتاري فقط. أحد اللصوص رد، وكان جاداً جداً، «الغيتار ليس من اهتماماتنا.»

- لا أستغرب أن يصادف المرء أحياناً لصوصاً قنوعين.

أضحكه التعليق طويلاً. قال: «أعتقد أن أولئك الأشقياء لم يكونوا لصوصاً حقيقيين. وأذكر وقتذاك بعد أن غادروا بما سلبوني إياه أنني قلت في نفسي لو أنني كنت قد أظهرت لهم بعض الصلابة لفروا من أمامي توّاً. وأنبت نفسي كثيراً للسهولة التي استسلمت بها أمامهم.

نهضنا ومشينا صوب صنبور الماء. بلّل مالوك منشفة كبيرة وراح يمسح بها جذعه العاري وبجانبه الريس عطية المصرى يضع من وقت إلى آخر رأسه تحت دفق الماء.

أبدى مالوك تذمّره من معاملة السماسرة، قال: «لقد نسوا أمرنا هنا، وكأننا سنعيش بهذا الماء وحده. إن حيواتنا بنظرهم لا تساوي شيئاً».

- «إنتو عارفين؟» قال عطية، أنا كنت هنا قبل ثلاثة أسابيع.

ترجمت لمالوك ما قاله عطية فقال:

- «حقاً؟ كنت هنا ولم تسافر؟»

رد عطية:

- أيوه ماسافرتش لأن فلوسي كانت ناقصة. دلوقت تممتها بالعافية. المرة اللي فاتت تعذبنا هنا بلا أكل، يومين ونحن بناكل خبز حاف وصلصة نية. دي عوايد السماسرة كده، ما بيغيروش عوايدهم. وانا أراهن اليوم ما حنشوف وشهم. بكرة في الليل يمكن بيفتكرونا.

في أمسيات لاحقة، حكى لي مالوك مزيداً من القصص حول جده مالوك الأول، قال: «نشأ الجد نشأة عادية. عرف كصياد للسمك وكرجل محب جدير بالاحترام. عقب رحيله، ألفت أغاني كثيرة، ونظمت أشعاراً، كلها تدور حوله وحول سفينته العظيمة التي سيسترد بها جوهرته من براثن القراصنة. لقد وثّقت هذه الأغاني والأشعار مراحل بناء السفينة. ووصفت بدقة هيئة مالوك.

وهناك الأشعار التي يقال إن مالوك نفسه ألفها، مثل هذه التي يخاطب فيها البحر:

من صلبي
جاءت هذه السفينة
أمنحها فرصة قصيرة
كي تعيد
روحي المسروقة.

يلتفت مالوك قليلاً نحو جلبة صغيرة أحدثها الماروكي وأحد المصريين ثم يواصل سرده لأسطورة الجد:

- رحيل مالوك أغضب البحر بشدّة. ويقول الرواة «مدّ البحر أذرعه المائية إلى حيث استقرّت سفينته، أخذها بحنو أب يحمل طفلته الوليدة، ثم أجراها على صفحته، وكان يرتفع منها صوت مالوك، والذي كان عذباً وحنوناً وهو يردد أشعاره.» ويحكي الصيادون والبحارة المغامرون، حتى اليوم، أنهم يشاهدون دائماً في عمق بعيد فوق المحيط سفينة مالوك ببحارتها الذين من ريح، تعلوها راية سوداء.

كان مالوك يزيل الغبار الذي علق على غيتاره ليلة الأمس، ممرراً قطعة جلد ناعم على أجزائه.

قلت له:

- أريد أن تسمعني عزفك، أنا في شوق إلى ذلك.

- حالما أستيقظ سيكون طلبك مستجاباً.

- لكنك مستيقظ الآن، والدليل أنك تخاطبني وتحكي لي حكايات.

- حقيقة، ما لم أتناول عدة أكواب من القهوة لا تصدق أنني استيقظت.

- أنا نفسي أعاني هذا الأمر. حين شكوت لهم هذا الهم، قالوا لي إن هذا ترف يقدم في فنادق الخمس نجوم فقط.

تكلم مالوك ضاحكاً وقال:

- ما دام الأمر كذلك، فلن نشم رائحة القهوة مدى الحياة.

كان بجانبنا رجل من الحبشة ظل يستمع إلى أحاديثنا. كانت له عينان جميلتان أضفتا على ملامحه شيئاً من الجاذبية. عرّفنا عن نفسه قائلاً:

- أنا من أثيوبيا، والآن أود أن أعبر أمامكم عن ندمي الشديد لانجراري إلى هذه المغامرة. ولا شك أيضاً أنه يخامركما شعور بالندم مثل الذي أحسّ به الآن.

- حقيقة، أُحيّي صراحتك. لكن الهجرة ستظلّ في الأرض ما بقي الإنسان. دلني على أي أرض لم تطأها قدم مهاجر. هكذا رد مالوك، وأضاف: شخصياً لا أستبعد في التاريخ المقبل أن يشد جزء من العالم الرحال نحو أفريقيا الطاردة هذه.

تكلّمت:

- صحيح. قد تكون هذه الأرض معقل الإنسانية الأخير، مثلما كانت مهدها الأول.

- رائع هذا الصباح، قال مالوك، بالرغم من أنه بلا قهوة، إلا أنه رائق وجميل لانبثاقه عن رجال طيبين. تحيا أفريقيا، هكذا هتف.

ثم قال موجهاً حديثه للأثيوبي: «لو كنا في بلادكم لما احتجنا إلى استجداء أكواب القهوة.»

ابتسم «ملقيتا» الأثيوبي، ثم قال: نشأت في إقليم «قوما قفا» موطن البن، ولم يخطر ببالي أنني سأصاب بالصداع كما هي حالي الآن بسبب انعدام القهوة. ثم حكى لنا أجزاء من رحلته، وكيف أنه عبر من أثيوبيا إلى الأراضي السودانية من عين المكان الذي يعبر منه النيل الأزرق. كانت المياه عكرة وسريعة الجريان، والأمواج تسافر كتفاً إلى كتف. أمواج وراء أمواج، بانية من نفسها أشكالاً كبيوت الطين، وخياماً، وصخوراً، ومعابد كتلك التي خلفها مبثوثة في جبال الحبشة. وكانت الأمواج حين تمر عبر المضائق تتهشم فوق بعضها بعضاً، مثل جرار صلصال عملاقة.

كان أول ما شدني إلى ملقيتا هدوؤه الراسخ، هدوء رجل خبير بالحياة. رؤيته وهو يتعرف تواً إلى أصدقاء جدد. وهو يصافحهم وسط ضحكاته التي توحي بروح مرحة. لكن ما انكشفت عليه روحه إبان محنة غرق المركب الذي كان على متنه بصحبة مالوك شيء لا يصدق. انطلقت شياطين الروح ومردتها فجأة. وحوّل ذلك الوحش مساحة القارب الضيقة إلى مكان للإغارة والسطو، مكان لنهب المحتضرين، بدءاً بالأنفار القليلين الذين كانوا لا يزالون صامدين ولم يدخلوا في الغيبوبة، آخذاً في

مطاردتهم لسلب ما بحوزتهم من نقود. كان يلتحم في قتال عنيف مع أحدهم إلى أن يتحقق له مراده، وينتزع من جيب الضحية المنهكة كل ما يجده.

حتى مساء أمس الأول، قبل مجيئه إلى هنا، وكلما اقتربت ساعة الصفر، درج مالوك على الذهاب إلى الشاطئ. كان يتخير بقعة مهجورة، لأن ما يريد أن يقوله من كلام للبحر كثير وكثير، ولا يريد أن يسمع الناس ما يتبادله معه. هو سر خاص بينه وبين البحر، ولا داعي لأن يطّلع الفضوليون على أية كلمة أو حرف منه.

يريد أن يقف قبالته وجهاً لوجه كما فعل في المرات السابقة. سيقف معتدلاً كمن يقف أمام خصم عتيد. وسيفعل نفس ما فعله في المرات السابقة. بدايةً، سيرمي ببصقة على وجه البحر لتظل طافية فوق الموج للحظات ثم تذوب وتتلاشى. يراقب تلاشي بصقته مبهوتاً. تصور نفسه مكانها وفكر: «ماذا لو أن البحر أراد الانتقام في يوم الرحلة ويلاشيني مثل البصقة؟»

إلى هذا الحد كان قد بلغ خوفه من البحر. لكن هذا الخوف لم يكن ليمنعه من الكلام الحاد الذي درج على تبادله معه. كان يطرد خوفه بإظهار التحدي. وتسمع الجروف والصخور ورمال الشاطئ صرخته التي يدشن بها العراك: أيها البحر الحقير. أيها البليد، يا ثور الجورنيكا (الثور المقصود هنا هو أحد عناصر لوحة بيكاسو، الجورنيكا. يرى فيه بعض النقاد إحدى القوى الهائلة، لكنها قوة بليدة ومحايدة، ولا دور لها سوى التفرج على الأحداث التي تصورها اللوحة)، أنا لا أهابك. لست أكثر من مجرد جسد

غبي ينضح ملوحةً. أنا أحد حقراء هذه الأرض، أتأهب الآن لأتبول على حلقك. سأتمادى في تحقيرك. أيها البليد، أيها المالح. سأحرق غصباً عنك المسافة من هنا وحتى اليابسة في «لامبيدوزا أو سيشيليا». نعم كل المسافة التي من هنا إلى هناك. سأمتطيك وأعبر... سأتحداك... سنرى أنا وأنت من منا سيصدُق؟ هل ستجهز عليّ؟

لم يسبق أن وضعتك في حساباتي قط. كنت في حكم العدم. لا شيء كان في حياتي اسمه بحر. ورغم رهبتك، وغدرك المعروف وخيانتك، لم تكن لك أية أهمية في حياتي. صحيح أنّ لا مقارنة بين عمرك الذي يفترض أنه بعمر الأرض وعمري الذي مقدر له أن يفنى على كل حال. كان الأجدر لكائن مثلك أن يمتلك مشاعر وأحاسيس وقلباً كبيراً. ثم لماذا أنت كائن بلا روح؟ كيف تمّ سكبك في قيعان هذه الأرض القحبة؟ وأية عدالة تنفذ حين تقتل؟ أم أنك تقدم كل تلك الأرواح قرابين لآلهتك؟

قرار التسلّل إلى تونس اتخذ بعد فشل الرحلة. كانت ساحة المنزل غارقة في الظلام، إلا ما كانت تلقيه عليها أبواب الغرف المفتوحة من أشعة. كنت أُفرغ قلقي بالتمشي عند طرف الساحة القريب من الباب في انتظار أن يؤتى لي بالسجائر.

كان مالوك وترحاس يتحادثان حول توقعاتهما عن ساعة الصفر. كما عرجا على سيرة مالوك الجد. قالت لمالوك:

– أحس من النبرة التي تسرد بها قصة جدك أنك لا تصدقها. تسردها كأنها لا تعنيك.

- كيف استنبطت هذا يا صديقتي؟ أنا أحب هذه الخرافة.
- ها أنت ذا تقول عنها خرافة.
- الحكواتية هم من أطلق عليها هذا.
- أنا أحببتها يا مالوك. وأود أن تصدقها.
- أصدقها بالطبع.
- حقاً؟ يجدر بك ذلك.

عقب هذا الحوار، تمدد مالوك على إحدى تلك الأسرة الحديدية، تحلّق حوله بعض المهاجرين وراحوا يتبادلون نتف حكايات مضحكة في ما يشبه تأسيساً لليلة سمر.

بإنجليزية مفخمة، قال مالوك الذي ظل متمدداً فوق أسلاك السرير العارية:

- آه... ما أعذب «التمطي» فوق الأسرة.
- لكن «التمطي» الأعذب هو فوق أجساد النساء.

هكذا تلفظ أحد المهاجرين عفوياً دون الانتباه لوجود ترحاس قربهم، والتي نظرت إلى المهاجر العديم الحياء نظرة حارقة. لكن الأكثر حرقة هو ما بان من سخرية مرتسمة عبر زاوية فمها اليسرى لتحتل شيئاً فشيئاً كامل صفحة وجهها، سخرية هائلة لا يمكن إزالتها من قلب المهاجر وعقله وعينه، والذي تشربها حتى الثمالة وانكفأ بوجهه بعيداً.

حركني توق جامح إلى أن أستطلع العالم خارج الجدران لكسر ضجر أمسيتي هذه. وهكذا أسندت سريراً من تلك الأسرة

المهشمة إلى الحائط، ثم تسلقت به سقيفة الباب. وما شاهدته انعقد له لساني.

كانت أضواء وفلاشات حمراء وزرقاء كثيرة لعربات الشرطة تنهب الأرض، خمنت فوراً أنها تقصد المنزل الذي يؤوينا.

وجدتني أقول:

- هيا، شرطة، كُشف أمرنا.

الهرج الذي أطلقته كلماتي وسط المهاجرين لم يعمل على إفاقتي من صدمة رؤية السيارات. بل ظللت قابعاً هناك أتابع مشهد الأضواء الحمراء والزرقاء التي كانت تشربها أوراق أشجار الطريق.

أحسست بيد مالوك الذي تسلق حديد السرير تنتزعني وتنزلني من هناك . ثم رأيته يعدو إلى داخل الحجرة ويعود بعد أن خطف غيتاره. ترحاس أيضاً أحضرت كيس حوائجي وحقيبة يدها. وتسلّلنا عبر الباب الذي حطمه المهاجرون تواً، وسمعت صوت تكسّر مصراعيه. هربنا باتجاه البحر من خلال مزرعة مثمرة. طوقت السيارات المنزل وألقت القبض على من لم يسعفه الحظ.

لمحت الريس عطية يعدو في المقدمة، وخلفه ما يقارب العشرين فرداً من ضمنهم الفتيات السنغاليات. إحداهن كانت ترتدي ثوباً تقليدياً مورّداً لم يعقها عن العدو مثل ثور بري.

لما بلغنا الشاطئ، كنا قد جرينا نصف ساعة تقريباً. قال لي الريس عطية:

- سنمضي لمسافة مع البحر. ثم نخرج إلى الطريق الساحلي الذاهب إلى طرابلس.

- أنت الريس، ياريس. امض ونحن خلفك، قلت له.

- هذا سمسار منحوس. أتصدق؟ في الصيف الماضي أيضاً داهمت الشرطة هذا البيت. ولحسن الحظ كان عدد المهاجرين داخله قليلاً. كان جلهم من مصر والمغرب وشوية من أفريقيا، قال الريس.

- ألم يلق عليهم القبض؟

- حين سألوه عما يفعل هؤلاء هنا؟ أجابهم أنهم عمال بناء اكتروا منه المنزل.

كانت النباتات بجانب البحر قصيرة وقاسية العيدان. وعلى الرغم من الظلمة، كنا نمضي في طريقنا في تحدّ واضح لهذه العوائق الصغيرة.

قلت لترحاس في محاولة للتخفيف من وقع الحدث عليها:

- لا عليك يا ترحاس سنتجاوز المحنة.

- إن كنت تحاول مواساتي، فأنا لست بحاجة لمواساة من أي نوع.

- يا إلهي. أين روح المغامرة فيك يا بنت حواء؟

- قل، ألم أكن معك في صحراء الموت، وفي فخ السماسرة، وكنت سأمضي حتى النهاية بركوب البحر؟ لكن يبدو أن البخت يكرهني إلى الحد الذي يضيّع فيها فلوسي.

كان الريس عطية يستمع إلى حديثنا وهو يتعثر بالأحجار، وظل طوال المسير يلعن ويسب بلا حساب، حتى إن مالوك،

الذي بدا أقرب إلى هيئة محارب منه إلى فنان، قال له بإنجليزية متذمرة:

- ألا تعرف أن تمشي في الظلام، دون أن تطلق كلماتك هذه التي تشبه اللعنات؟

- نعم، إنه يطلق لعنات يا مالوك. كيف عرفت هذا؟

- عرفتها من إيقاعها اللعين.

- حتى أنت تورطت في اللعنات. أو إني أرافق أناساً ذوي أعصاب منفلتة؟

تكلّم الريس:

- قل لصاحبك إحنا بتوع ترع وغيطان. مش بتوع أحجار وشوك زي السم.

ثم صمت ليوازن جسده الذي تعثر وتفرغ لسانه لكيل السباب. وقال لترحاس: فلوسك ما تضعش، الرجل أمين جداً. أنا أعرفه. وعملها قبل كده.

عصر اليوم التالي على رجوعنا إلى طرابلس كنا داخل مبنى يتشارك الإقامة فيه صوماليون وإرتريون. وكان معروفاً لدى المهاجرين من الجنسيات الأخرى بأن الأخبار كلها تصب هناك. بل ويرسل سماسرة البحر معاونيهم إلى هناك للاتفاق مع المهاجرين والبحث عن ملاحين وميكانيكية الموتورات.

إذن، كل شيء كان يرتب هنا في هذا المبنى. وإلى هناك شددنا رحالنا أنا وترحاس ومالوك الذي صار جزءاً منا وكذلك

الريس عطية. في تلك العصرية، رأيت أحد معاوني السمسار الذي هربنا أمس من منزله يشق طريقه وسط المهاجرين الذين تكدسوا في الممرات.

الريس عطية سبقني بالكلام، قال: كنت واثقاً أنهم سيبحثون عنا. وبسرعة وقف ولوح بذراعه للمعاون الذي قال لنا:

- كنت آمل أن أجدكم. لكن لم أتخيل أن تتم الأمور بهذه السرعة. المهم تعالوا معي لمقابلة المعلم. فهو هنا معي وقدم ليطمئنكم بنفسه.

سألناه عما حل بالذين تم توقيفهم. أجابنا: المدام الكردية أخذتها الشرطة إلى المستشفى.

- صحيح. هذا حسن، قلت له.

- أما البقية، قال، ففي التوقيف. أرسلنا ناساً لمحاولة إطلاقهم.

كان المعلم داخل سيارته. بادرنا بالقول:

- أحضرت معي فلوسكم. خطة خروج المركب لم تتغير. جهزنا موقعاً آخر لاستقبالكم. والآن هذه هي أموالكم. سيأتي هذا - وأشار إلى المعاون - ليصحبكم قبل يوم من الرحلة.

سلم كل واحد منا ما كنا قد دفعناه له. ودعنا بلطف زائد. حتى المعاون الصارم القسمات كان ودوداً جداً هذه المرة.

يوم جاء المعاون ليخبرنا عن ساعة إبحار المركب، كنا قد رسونا على فكرة الانطلاق إلى تونس لأن هناك ميزة قصر المسافة

بين تونس واليابسة الأوروبية (أقل من ثماني ساعات)، على عكس الإقلاع من مكان قرب طرابلس تستغرق الرحلة منه يومين وأكثر. ثم هناك دوريات كثيرة حول حقل النفط البحري، حقل البوري، وهناك دوريات مالطا التي تقع على مرمى حجر من ليبيا.

وعلى الرغم من كل هذا، أبحر الريس عطية، بعد أن تدخل البخت لمصلحته، في ليلة من أهدأ ليالي المتوسط. ركب مع ما يربو على عشرين مهاجراً قارب (فيبرغلاس)، قذف بهم على شاطئ سيشيليا في رحلة موفّقة جداً. لم يمكث في ايطاليا، بل في اليوم العاشر من وصوله، استقل قطاراً لم ينزل منه إلا في النرويج. عمل مع سيدة تدير صيدلية. كان يعجبها كل شيء فيه، خصوصاً حين ينسى أن اللهجة المصرية غير مفهومة في النرويج. ويرد على نداء ربة عمله:

- جاتك نيلة. اسمي مش «أتيه» أنا أبوي سماني عطية.

ويضحكها حد التعرق حتى في الشتاء حين «يتجدعن»، ويتكلم نرويجي مجرور في التراب من شدة التكسير.

عقب أحداث سبتمبر/أيلول المروعة، ضبَطته وهو يصلي. لم تتردد، أبلغت من فورها رئاسة الشرطة وهي تكاد تمنح نفسها أنواطاً وأوسمة قائلة بإصرار:

- الحقوني يا شرطة، أمسكت تواً بإرهابي.

كانت السيدة على قناعة أن عطية هذا أو «أتا» أو ربما «عطا» سمعت اسمه يتردد في الأخبار. وقالت في نفسها أولاً، ومن ثم لاحقاً للشرطة، إنه حتماً أحد أقرباء بن لادن، أو (بالميت) إنه

أحد أصهاره. لم تعثر الشرطة التي هرعت إلى هناك على أي صلة تربط عطية بأحداث سبتمبر، لكنهم رحلوه إلي بلده بدعوة مخالفته لقوانين الإقامة.

مرت أيام لازم خلالها مالوك المنزل الذي استأجرناه في حي (الشرقية). خصصنا له واحدة من الحجرات وانطوى هناك مكابداً جراحه وأحزانه ووحدته. وعلى مدى ليالٍ طوالٍ كنا أنا وترحاس نأتي إلى حجرته ونمكث معه هناك حتى أوقات متأخرة من الليل دافعين إياه للتكلم على أي شئ... عن آلامه... وجراحه... وعن فنه الذي بات يكره مجرد الحديث عنه.

في العشية التي انفكت فيها «الكتمة» عن روحه وانزاحت فيها أحزانه، كان مستلقياً فوق سريره. جلبت له ترحاس فنجان القهوة ونبهته إلى أنه في هذه الأيام قد صار نهماً للسجائر. ابتسم لها وهو يستوي في جلسته فوق السرير ثم تناول الغيتار وبدأ يغني أغنية لم نسمعها منه من قبل. كانت نغماتها خفيضة وسريعة الكلمات كنهر ليلي يرحل صامتاً، ولكن بعزيمة طائر عائد من مهجر. كانت بها لازمة اشتباك وشكوى صادرة من أقوام تعاتب أقواماً أخرى. سحبت ترحاس كرسياً، وجلست بسكون تعبُّ كل الشجن وكل الوحشة وكل اللحن وكل روح الأغنية، إلى أن دمعت عينها كمن رأى إشراقة جديدة لشخص عزيز كانت قد اضمحلت حياته.

بعد حوالى أربعة أشهر، غادرنا إلى تونس. لقد سبقنا إلى هناك منذ أيام أصدقاء عبروا الحدود على دفعات، بعضهم لم يوفّق في الوصول إلى العاصمة تونس حيث تم توقيفهم في منتصف

الطريق. انطلقنا نحو الحدود في سيارة خاصة مستأجرة. وهناك، عند نقطة قريبة، قبل البوابة الليبية غير البعيدة عن بوابة الجانب الآخر من الحدود، نزلنا منها. كنا خمسة: أنا ومالوك وترحاس ومهاجرين من إرتريا تعرفنا إليهما قبل الانطلاق بوقت قصير، أحدهما يدعى عثمان ياسين، والآخر يلقب بعنفيرا.

قبعنا خلف أشجار «الرتم» بجانب الطريق حتى حلول الظلام، نتهامس حول ما يُتوقع أن يصادفنا في الأميال الأولى التي نرى الآن تضاريسها بوضوح خلال ما تبقى من أشعة هذا المساء الشتائي الذي ينذر بليلة مطيرة وباردة.

كانت السحب في الأفق البحري البعيد ترعد. والبرق بذيوله وأذرعه النارية الكثيرة كان بهلوان السماء بحركاته الرشيقة.

اتفقنا على أن يكون خط عبورنا في المساحة الواقعة بين البحر والطريق الدولي، على عكس المكان الذي عبر منه الذين سبقونا، حيث اختاروا العبور من الجهة الأخرى، بجعل الطريق والبوابات إلى يمينهم، والصحراء ناحية اليسار، الأمر الذي حتّم عليهم مواجهة مريرة مع كلاب الصحراء الجائعة.

لما هبط الليل، غادرنا بسرعة حذرة. ولما أصبحنا بمحاذاة بوابَتي الحدود، كنا على وشك أن يفتضح أمرنا بسبب كشافات ضوء البوابات في أعمدتها العالية المسلطة على الاتجاهات كافة، والتي أعطت ظلالنا المتحركة استطالة لانهائية فاضحة أصابتنا بالصدمة والخرس.

قبل أن أرتمي على الأرض، قدّرت أن ظلي يمتد إلى آخر

الدنيا، مشروراً فوق الأشجار والأعشاب، منغمساً تقريباً في مياه البحر الذي كنا نسمع صوت تكسر أمواجه على الصخور.

قال لي مالوك وهو يداري شعلة سيجارته:

- هذه بداية غير حميدة.

- يجب أن نزحف باتجاه البحر، قالت ترحاس، إلى أن تموت الظلال، ثم نعود مع القوس المشدودة بين الضوء والظلام.

- فكرة صائبة، رد عثمان ياسين.

هكذا مضينا محنيي الظهور نحو البحر. ورغم هذا، كانت الكشافات تلاحقنا بعداوة، ونحن نتجنب النظر إليها، كمن يتحاشى انكشاف فضيحته. في المكان الذي ماتت فيه الظلال، حسب تعبير ترحاس، استقمنا نمشي صوب الحدود. بدأت رياح غربية باردة تشتد. والمطر كان ينزل تارة، ويمسك تارة أخرى، إلى أن اصطدمنا بأول العقبات. كانت شبكة عالية من الأسلاك الشائكة غرزت أوتادها الحديدية متوازية في الأرض في ثلاثة خطوط، واتصلت ببعضها. ونمت وسط هذا كله أعشاب متكاثفة عالية تحجب رؤية ما خلف جدار الأسلاك وأوتاد الفولاذ.

بعد جهد، تمكن عنفيرا وخلفه عثمان ياسين من حشر رأسيهما وكتفيهما في الشبكة الجهنمية. جاءنا صوت عنفيرا الفزع بعد أن أصبح نصف جسده في الجانب الآخر والنصف الآخر وسط الشبكة: سيارة! هناك هيكل سيارة خلف شجرة السرو. وأخذ جسده بالتراجع غير عابئ بكلاليب الأسلاك التي كانت تنجر لحمه.

دفعه عثمان بعد أن ثبّت كعب رجله المتراجع وقال في حزم:

ـ امش قدام.

من دون مقدمات ولا بحث عن ثغرة معقولة، انغرست ترحاس في الشوك والأسلاك، وفي لحظة كانت تقف في الجانب الآخر. وراحت ببطء تقترب من السيارة وراء شجرة السرو. تحرر أيضاً عثمان وقبله عنفيرا. عادت ترحاس التي كانت قد اقتربت من السيارة وهي تقول بصوت واثق وفرح: إنها مجرد هيكل قديم مسنود بأحجار.

رمينا لهم أنا ومالوك بالحقائب من فوق الأسلاك، لكن اللحظة التي وتّرتني ووتّرت مالوك، وربما الآخرين جميعاً، هي لحظة قذف غيتار مالوك. لقد حاول أن تكون الرمية قوية كفاية بحيث يعبر ويهبط لتتلقفه الأذرع الست التي تنتظره على الجانب الآخر. لكنه لم يكن واثقاً بأن رميته ستكون صائبة. كان يخشى أن يتحطم هذا الرفيق الذي ظلّ يبثه شجونه وكل همومه ومخاوفه. يسرد له عن مالوك الجد، وعن ليبيريا التي تشوى كلما قذفت مناجمها قبضات من الألماس، يقتلها التجار، والعسكر، واللصوص، والمرتزقة، وفساد ساسة الدنيا كلها، الذين يعمي بريق الألماس عيونهم عن رؤية ما يصنعه جشعهم من قتل للبسطاء «الكل أجرم بحقك يا بلد»، يقول مالوك منهياً شكواه لرفيقه.

في النهاية، حملت مالوك على كتفي، بحيث صارت ذراعاه الممسكتان بالغيتار والمرفوعتان عالياً أدنى قليلاً من مستوى ارتفاع السلك.

مثل المروحة، راح يدور مقاوماً الرياح الغربية، وعبر ليحط سالماً على الأذرع الست الحنون. بكى مالوك. وكدت أن أبكي عندما قالوا لنا: وصل إلى «أرض سلام».

اندغم مالوك بجسده. وكذلك فعلت أنا من مكان بدا لي مثل منفذ سالك، لكنه أضاعني وسط «شربكات» من أعشاب وأسلاك. الأمر الذي اضطرني إلى سحب نفسي من هناك، والولوج من النقطة التي ولجت منها ترحاس. عبَرَ مالوك، لكن عبوري كان عسيراً إلى حدٍّ دفعني إلى اليأس، ورأيت معها ألا أفعل وأعود أدراجي. لكن الكلمات التي كان يستحثني بها الأصدقاء، خصوصاً مالوك، فعلت الفعل الرجيم وضاعفت همّتي.

بعد مضي نحو نصف ساعة في الوحل، والمرور فوق سبخات ملح، وعبور مقبرة لا حدود لها وقف لها كما قال مالوك «شعر رأسه»، دخلنا أراضي الزيتون وأنواع من الزراعات. كان السير فيها يسيراً، واختفت تلك النباتات العالية، وأصبحنا نعرف أين نضع أقدامنا رغم الظلام والمطر والسحب المدلهمة.

عدنا من ذلك البعد الذي ماتت فيه ظلالنا لنسير غير بعيدين عن الطريق العام. كانت السيارات تمضي فيه متمهلة، وكلما سقطت علينا أضواؤها البعيدة، كنا نقف جامدين متخذين أشكال أشجار يابسة.

من بعيد، لاح لنا ضوء نقطة تفتيش جمركية. وكنا كلما اقتربنا منها ازداد قوة، ما تطلب منا النزول كرة أخرى نحو البحر لقتل الظلال، ثم العودة والسير بمحاذاة الطريق.

كانت الأرض الزراعية قد اختفت، ليظهر القصب الشيطاني العالي مترنحاً تحت الريح، محدثاً عزيفاً مخيفاً. كانت بعض الأودية عميقةً جداً بحيث مثّلت موانع يعاضدها المطر والظلام والريح والخوف والتعب.

نزلنا باتجاه البحر لتفادي «فلاش» الكشافات الأخيرة قبل بلوغ مدينة بن قردان الحدودية. ورجعنا عند تلاشي الظلال، عبر قوس خالطها الضوء والظلام وسط ريح مجنونة تسد طريقنا، متقمصة روح حراس الحدود. مررنا وسط بيوتات متناثرة بأسوارها المنخفضة، يقطنها رعاة عرفنا فيما بعد أنهم معتادون مرور الغرباء واللصوص والمهربين والفارين من العدالة. وتكون لحظتذاك أصابعهم على الزناد، انتظاراً لأي مبادرة يقوم بها أحد العابرين بالتعدي على ممتلكاتهم من حيوانات وعربات وغيرها ليُردوه. ولكن ما دام يراعي الأعراف غير المكتوبة بعدم التجاوز، فإنهم لا يكلمونه، فيعبر بسلام.

كانت أنوار بن قردان تنبعث من تحت المنخفض الأرضي الذي يحتضنها لتضيء السماء. قرب المدخل الغربي للبلدة، عثرنا على صنبور ماء جوار بيت ربما كان مهجوراً أصلاً، أو أن أصابع ساكنيه كانت على الزناد؟ لا أدري.

تخلصنا من ملابس الرحلة المبتلة والتي تمزق بعضها في أكثر من مكان. ارتدت ترحاس سترة وبنطال جينز واسعاً وانتعلت حذاء رياضياً، ثم وضع مالوك قبعته فوق شعرها المضموم لأعلى وهو يقول لها: دعينا نخدع هذا العالم لمرة يا أختاه.

ضحكنا لدعابته الصباحية هذه. وحتى عثمان أطلق ضحكات مكتومة، وهو الذي يتميز بصمت «المافيوزي» والذي لم نسمع منه طوال المسير إلا جملة «امش لقدام» في بداية الرحلة. وازدادت ضحكات الجماعة عندما اقتربت من ترحاس وقلت لها ممازحاً:

- أهلاً. هل كان الأخ معنا منذ بداية الرحلة؟

- لا، ردت بسرعة، الأخ قبل لحظات كان الأخت.

عقب تبديلنا للملابس والأحذية، قبعنا داخل أجمة من أشجار السنط على حافة الطريق قرب المدخل الشرقي للمدينة، بانتظار أن تعلو الشمس قليلاً، لأن السير في الليل وسط البلدة كفيل بلفت أنظار الدرك والأعوان. وهناك في البقعة التي بدت أشجارها ودودة جداً، تذكر مالوك الفرقة الطرابلسية لموسيقى الهواة التي تعرف إليها وتعلم معها العزف على «الزكرة» ورقصة «الكاسكا»، وكيف أنهم اعترضوا على سفره. وحتى أن أحد فناني طرابلس التشكيليين طفرت الدموع من عينيه حين علم بقرار مالوك.

كانت السيارات الداخلة تمر منخفضة السرعة بسبب دبيب حركة الشارع الرئيس. وظهرت البلدة في قعر ذلك المنخفض بهية تحت خيوط أشعة الشمس. وكان اخضرار المحيط آسراً.

خرج مالوك وعثمان وعنفيرا للعلن ومشوا عبر إسفلت الطريق. بعد أن خطوا نحو مائة خطوة، خرجنا أنا وترحاس. كان مبنى نقطة شرطة البلدة يقع يسار المدخل، تقابله في الجانب الآخر محطة الوقود التي مررنا من أمامها تواً. كانت بها سيارة

كبيرة تحمل على ظهرها جراراً زراعياً. اجتزنا الطريق بهدوء بعد أن رددنا بالتحية على تلويحة صاحب الجرار.

بعد مضي بضع دقائق، وكنا وقتذاك نتمرغ في سرور لا يوصف جراء تجاوزنا أهم العقبات وأصعبها، سمعنا صوتاً عالياً ينادي: اسمع يا هو... اسمع، أنتم.

التفتنا أنا وترحاس بينما ظل الآخرون يمشون على مهل. قال لنا صاحب الصوت الذي كان واقفاً أمام مدخل مبنى مكاتب الشرطة:

- من وين أنتم؟

لم أجد على لساني غيرها ورددت بصوت عالٍ:

- إرتريا، إرتريا.

- موريتانيا؟ سأل الشرطي.

- نعم. رددت بصوت أعلى قليلاً من صوتي الأول.

- مع السلامة، مع السلامة يا موريتانيا، قال، مع تلويحة تأمرنا بمواصلة الطريق.

شكراً لتشابه الأسماء والحروف. وشكراً للشرطي الطيب الذي اعتقد أنه سمع موريتانيا بدل إريتريا، وظنّ أننا من مواطنيها الذين لهم حق دخول تونس بلا تأشيرات.

همست ترحاس: هذه معجزة. عندما لحقنا بالثلاثي الذي كان مذهولاً، قالوا لي: نرجو أن تكون قد ادخرت القليل من سحرك الذي أطلقته على الشرطي، لأننا هذا اليوم في حاجة إلى

سحر «باتع». ثم قال لي عنفيرا: أترى كل هذه الأعلام التي ترفرف فوق كل زاوية وسارية؟

- يا للهول، قلت وأنا أشاهد الأعلام.

كان المقهى الذي ولجنا إليه يطل على الشارع الرئيس الذي يخترق البلدة. جلسنا هناك على طاولة بجوار نافذة زجاجية مستطيلة تفتح على الشارع. أحضر النادل أكواب القهوة وقناني الماء. تحدث مالوك وهو يعبّ الهواء المنعش الذي كان يتدفق عبر النافذة:

- بالتأكيد، كل واحد منكم يريد أن يدفع فاتورة الحساب، احتفالاً بالمروق من عنق الزجاجة. وهتف بكلمات بدت كابتهالات: تحيا موريتانيا. كان يتجاذب أطراف الحديث مع النادل بفرنسية قحة في أريحية لم أعهدها فيه منذ الهروب الكبير من حوش السمسار. كنا ندرك مقاصده من الأحاديث العذبة التي كانت تتخللها قهقهات لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد. فهم من النادل السبب وراء رفع الأعلام الكثيرة. قال له: «إنها الذكرى الـ. . . لا أدري كم عاماً مرت. إنها عموماً ذكرى تحوّل السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني».

- لم أفهم، قال مالوك.

بتأن، أخذ النادل يشرح: في مثل هذا اليوم قبل سنوات. . . حدث تحوّل سبعة نوفمبر. . . يعني السلطة تحوّلت فيه من شخص إلى شخص آخر.

- إنه يوم وطني إذن؟

- هو كذلك.

بعد أن انصرف النادل تكلم مالوك:

- كنت متفائلاً أكثر من اللزوم... ما زلنا في عنق الزجاجة ولمّا نخرج بعد. هذا هو اليوم الوحيد في السنة الذي يعمل فيه الدرك والأعوان.

- أيها الصديق، أريد أفخم ما لدى تونس من تبغ، كلّم مالوك النادل الذي كان في خدمة طاولة مجاورة.

- لك هذا. ثم أحضر لنا علبة أنيقة محاطة بحزام أحمر عريض في المنتصف طبع عليه الرقم ٢١.

- ما دلالة هذا الرقم؟ حدّث مالوك صاحبه.

قلب النادل شفتيه ثم استدرك وقال:

- ربما ضرب السبعة، في السبعة... ثم صمت عندما أدرك ناتج ضرب السبعات أكثر من هذا بكثير...

- يا للهول، يا للهول، ردد مالوك. ثم واجه النادل وقال: نحن في طريقنا إلى العاصمة، بمَ تنصحنا؟ أعني وسيلة السفر. الباصات أو سيارات الأجرة الصغيرة في رأيك؟

- أولاً، أجاب، العباد اليوم في إجازة. أعني أن حركة السير خفيفة هذه ناحية. ثم صمت وراح يجول في وجوهنا وواصل: إن أردتم سفراً بلا مشاكل يحسن بكم أن تستأجروا سيارة خاصة. لا تسافروا في المواصلات العامة، إنها لا تمر من دون تفتيش ومعها الكثير من السين والجيم.

- إذن سهّل لنا العثور على سائق متفهم.

- أنا حاضر.

خرج توّاً من المقهى، ورحنا نتابعه وهو يعبر الشارع. ولج عدداً من المحلات، ثم خرج من أحدها برفقة رجل كان يبحث بنفاد صبر عن شيء في جيوب معطفه. فهمنا من هزات الرأس ومن الاهتمام الذي كان يستمع به إلى كلام النادل أنه هو رجلنا. قدمه لنا بالعربية قائلاً: هذا الصديق ابن الصراط، رجل طيب أفهمته كل شيء. يطلب ضعف ما يدفع للمواصلات العامة. إذا وافقتم سينطلق بكم الساعة.

لم نكن على استعداد لإضاعة الوقت في مفاصلات كثيرة، ورأينا أن نمنحه ما يطلب.

قال السائق مباشرة: دعونا نكن واضحين، سامحوني فيما أريد قوله، تريدون السفر إلى العاصمة وما لديكم أوراق أليس...

أردت أن أقاطعه لكن الكلام راح يتدفق منه بعربية سريعة تتخللها عبارات ومفردات فرنسية: ... أنا أعرف، فيما يتعلق بالأجرة لا أطلب الكثير، وأنا نفسي ليس مسموحاً لي نقل مسافرين. هذا ممنوع، فلو ضبطت سأغرّم بمبالغ لا يمكنكم حتى تخيلها.

قلت له: خلاص يا سيد، سنسافر معك.

شرب قهوته التي طلبناها له على جرعات متتالية وسريعة ثم خرج وهو يقول: أكملوا قهوتكم سأنتظركم في السيارة.

دفع مالوك ثمن أكواب القهوة، ونفح النادل بخشيشاً محترماً وخرجنا بعد أن تبادلنا معه عبارات وداع حارة وصادقة.

أخذت مقعدي بجانب السائق، في حين جلس مالوك وترحاس في المقاعد الوسطى، بينما عثمان وعنفيرا، الذي يبدو عليه أنه لن يقاوم سلطان النوم، جلسا في الخلف.

انطلقنا عبر الشارع وتركنا خلفنا بلدة غارقة في الأعلام. كانت سيارات الدرك منتشرة تحت المطر عند مفترقات الطرق وأمام الدور الهامة في المدن التي مررنا بها، خصوصاً في قابس، وسفاقس التي توقفنا فيها لتناول وجبة الغداء. عند مغيب الشمس، كنا نترجل من سيارة البيجو وسط تونس العاصمة. سألنا من فورنا عن عنوان نزل الحلفاء الذي نُصحنا بالنزول فيه لتغاضيه عن أمر الهوية، حتى إنه يهمل تسجيل أسماء النزلاء. وكنا قد أُعطينا اسم صاحبه العجوز «سي الناجح».

أخذنا نسير نحو عنوان النزل. ومصادفةً عثرنا على مهاجر كان يتجول وحيداً في الشوارع. خمّن أننا قد نكون مهاجرين جدداً، استوقفنا وسلم علينا ورافقنا نحو النزل. صبّ لنا الأخبار دفعة واحدة؛ عرفنا منه أن مركباً سينطلق بعد نحو أربعة أيام، وأن مركباً ثانياً يُعدّ له قد ينطلق بعد نحو أسبوع، وأن الأمور غير جيدة كفاية. كما أنه يلقى كل يوم القبض على مهاجرين.

كان نزل «الحلفاء» مدرجاً ضمن خريطة تونس السياحية. وكان موظف الاستقبال رجلاً كهلاً طيب القلب لا تفارق الكأس يده ما دامت عيناه مفتوحتين. دخلنا النزل على دفعات بحسب

النصائح التي تلقيناها من المهاجر. أوصلنا العجوز إلى حجراتنا دون السؤال عن أي أوراق ثبوتية لأنه اعتاد استقبال مهاجرين كثر لا يعرف لهم بلاداً. طلب منا أجرة المبيت فقط قائلاً: «كل يوم بيومه»، أي على النزيل دفع الأجرة مقدماً كل يوم. قلت له وهو يقودنا أنا ومالوك وترحاس عبر الممر صوب الحجرات:

- أنت رجل مشهور جداً يا سي الناجح.
- علاش يا خوي؟ مشهور باش؟
- بالتسامح والتغاضي عن طلب المستحيل من مهاجر.
- يكفي المهاجر أنه مهاجر.
- الله يكثر من أمثالك يا سي الناجح.
- ومن أمثالك يا وليدي.
- أمثالي؟ أتقصد يكثر من المهاجرين؟
- لا، لا. ما تفهمنيش بالمقلوب. أنا قصدت الناس الطيبين.

حين فتح باب إحدى الحجرات وهو يشير نحو ترحاس «هذي للبنية». صدمنا انبعاث روائح العطن والخمور. وقفزت من على السرير الذي تبقّعت ملاءته بالعرق وبول السكارى. عدة جرذان فرت عبر فتحة المكيف المنزوع.

دخلت ترحاس إلى حجرتها. ثم فتح الحجرة التي تليها لننام فيها أنا ومالوك.

قلت للعجوز:

- لا أستطيع قضاء الليل بلا خمر، رجاء اخدمني هذه «الخديمة» وشوف لي حل.

- بودّي نخدمك، لكن الدنيا قرب الصبح. ماثماش (ليس ثمة) بار أو «سوبر ماركت» في تونس كلها مفتوح.

- ولو حاجة بسيطة أقتل بها تعب الرأس.

- انتظرني قد أجد لك حاجتك.

غاب لدقائق ثم عاد وبيده زجاجة «فينو» ملفوفة في جريدة. ناولني إياها وهو يقول اشرب بالصحة عليك، ولا تنس أن تقرأ الجورنال. ووضع إصبعه على خبر داخل إطار مميز منشور على صدر الصفحة الأولى مرفقاً بصور فردية وجماعية لمهاجرين عرفت من سحناتهم أنهم من أفريقيا جنوب الصحراء.

كان المانشيت يقول: «إلقاء القبض على ثلاثين متسللاً، وتفكيك شبكة تهريب محلية».

قلت بسرعة بعد قراءتي للمانشيت:

- هل نحن بأمان هنا؟

- كله بالتساخير يا وليدي.

- نريد أن نطمئن.

- الحالة والعة.

- كيف تنصحنا؟

مالوك، الذي انزعج من اللهجة التي كنا نتحاور بها أنا والعجوز، كان يلح أن أترجم له ما يدور. ترجمت له حالتي الداخلية. «لسنا بأمان».

حثّني على إعطائه المزيد من المعلومات. لم أحدثه بشيء. وضعتُ في يده الجريدة وأريته صور الخبر. كانت الصور تغْني عن أية ترجمة. ظل يتفرس فيها للحظات ثم سمعته يقول لي:

- هل كل هؤلاء في الحبس؟

- أجل، أجبته.

- نصيحتي لكم هي تجنب الوجود في الأماكن العامة والشوارع والميادين والحدائق، وعدم السير في مجموعات.

حالما نقلت لمالوك ما قاله سي الناجح تمتم:

- معنى هذا أن على الواحد منا أن يبحث له عن علبة كبريت ليسكنها.

- لا يجد العلبة التي تتحدث عنها إلا المحظوظون، ونحن لسنا منهم.

أعطيت العجوز ثمن زجاجة الفينو، لكنه رفض أخذ الإكرامية وانصرف وعلى وجهه بعض الحزن على حال هؤلاء الغرباء.

لم يشرب مالوك الكثير، تناول كأساً واحدة ونام بعد أن ناولني حزمة ورق وهو يقول: اقرأ إن كنت تحب حكايات ما قبل النوم. كان عنوان الحزمة «مالوك الثاني»، ورحت أقرأ:

«كان جدي مالوك الثاني - نجل مالوك الأول - في المهد حين خطف القراصنة والدته. وكان والده، الذي انشغل عنه بصناعة سفينته، يقدم له الماء والحليب من وقت لآخر، ويحدثه أحياناً كمن يحدّث شخصاً راشداً، مطلعاً إياه على خططه التي

اعتمدها لاستعادة «ماماك». وكان وهو في مهده يستمع إلى كلام الرجل الذي يطعمه ويجلب له الماء مثل دروس ينبغي حفظها. تعلم الزحف حول المهد، بل وبات بعد مدة بمقدوره الزحف نحو الباب والخروج من الكوخ والتعرف إلى أنواع وأجناس مختلفة لحيوانات وطيور ونباتات. وهناك، لذّ له أيضاً أن يصادف ثماراً حلوة بطعم العسل كان يلتقطها من الأرض. ولا ينسى، حسبما حكى حين شب قليلاً، ذلك اليوم الذي وقف فيه على رجليه معتمداً على عارضة المدخل. لبث متشبثاً بها مدة طويلة «إلى أن سمعت، يقول، تهاليل الغبطة تتدفق من فم رجل الماء والحليب - الذي بات معتاداً مناداته «بابا» - حين وقعت عليّ عيناه وأنا واقف محتضناً تلك العارضة. الأمر الذي شجعني، فتحركت لملاقاته، لكنني تعثرت وسقطت. حملني بعدها ودار بي حول الكوخ، بل ولأول مرة ذهب بي إلى حوض بناء السفينة. وكان آنذاك قد فرغ من بناء بدنها الذي يغوص في الماء.

حين كبر مالوك الثاني، طفق يسرد طرفاً وحواديت عن أمه التي يقسم دائماً أنه رآها، وأن صورتها موشومة في كل أجزاء روحه. في حين يؤكد كل المعارف من كبار السن: عندما اختفت، كان هو - مالوك الثاني - من الصغر بحيث كان بالكاد يفتح عينيه.

ومالوك الثاني المغرم حد الهوس ينسج حكايات وقصصاً عن أمه، كان مخلصاً للآباء والأجداد ولمعبودات وأرباب عقائدهم من الطواطم الكثيرة أشد الإخلاص. وقد عمل مدى الحياة المديدة التي عاشها على جمع كل الآلهة والأرباب التي عرفتها البسيطة -

لم تكن البسيطة واسعة كما نعرفها اليوم - ووضعها تحت سقف واحد، حيث أظهرت تعايشاً يليق بها. وكانت في تمام الرضا عن راعيها. إضافة إلى هذا الإنجاز - جمع الأرباب تحت سقف واحد - كان سارداً فذاً للأساطير، وقد شهد عالم ذلك الزمان الغابر منافسات محتدمة بينه وبين سارد آخر، لا يقل عنه أهمّية، هو شائب الرأس وعجوز الغابرين الشيخ «إيبوا نافي»، في سرد الخرافات والأساطير بشرط ألا يكون قد تداولها أو سمع بها أحد. وكانت تلك المنافسات تعقد أمام لجنة حكام من المشايخ، يقال إن أكبرهم سناً كان أول مولود رزقت به الأرض عقب الطوفان.

وكان على مالوك الثاني وعلى الشيخ إيبوا نافي أن يسردا أساطيرهما وفقاً للشرط أعلاه. عدا ذلك، فهما حران في سرد ما يشاءان، حتى تلك الأساطير التي تجود بها قريحتاهما تواً، مع توخي الإقناع والتصريح صدقاً وصراحة أنها من بنات أفكارهما، فقط من أجل أن يأخذ أعضاء اللجنة الموقرون ذلك في الاعتبار، أو قل من باب أخذ العلم بالأمر - وإلا فإن اللجنة ليست على استعداد لإضاعة وقتها في سماع ما ليس مقنعاً.

عجوز الغابرين الشيخ إيبوا نافي - وبالمناسبة هو من أقرباء آل مالوك حيث كان كل الناس في ذلك الزمان أقرباء - كان منافساً عنيداً وكان يبرع في الأساطير والخرافات التي يصنعها على الفور. وكان يطلق العنان لضحكه وتنهمر من عينيه جداول دموع كأنها من عين ماء حقيقية حين يشعر بالرضا عن نفسه، كحكّاء وصانع أساطير من طراز رفيع. إلى أن أعلن في ذلك اليوم المشهود الذي

أطلق فيها مالوك الثاني أسطورة «روائعية» استسلامه الذي لا رجوع عنه، لأنه سوف لن يعثر - ربما كان صادقاً في ذلك - على حكاية تتغلب عليها.

كانت رائعة مالوك الثاني التي كان قد أنتجها توّاً تدور حول: «الحجر الذي تكلم لمرة واحدة ثم مات».

وقد حرص في مطلعها على الإعلان بأن أحداثها وقعت في المستقبل. وكان ذلك ضرورياً لتنوير عجائز لجنة التحكيم والحلقة الواسعة من جمهور المستمعين على ما ينتظر نسلهم من عجائب وغرائب الأمور. وكان يرنو بعين مخيلته إلى أزمنة بعيدة قادمة. إذن، هي كانت أسطورة نبوئية. كنت أبحث عن طريقة أمزج بها بين كلمتي أسطورة، ونبوءة. لكنني عجزت عن خلط الكلمتين في كلمة واحدة مركبة تُفضي إلى معنى ذي مغزى. مثل هذا المزج العجيب، بين كلمتي «ديكتاتور» و«حاكم» الذي يفضي إلى إنتاج مثل هذه الخلطة السلسة، «توركم»، التي تستدعي إلى الذاكرة الثور بذاته وصفاته.

بالعودة إلى أسطورة الحجر، وبالقول المختصر: إنه في يوم بعيد قادم، رقّ قلب حجر من الأحجار لحال الناس، ولما يلاقونه من ظلم من ولاة أمرهم، وتكلم مستنكراً ومحتجاً، واضعاً نفسه الحجرية الأبية تحت تصرف المظلومين.

وتمضي الأسطورة - لكن الناس لم يرقهم أن يرقّ لحالهم قلب حجر، فقاموا إليه في الحال، وطمروه داخل أخدود بعمق ألف ذراع، وراكموا فوق جثته أحجاراً خرساء بلغت في ارتفاعها

ما لا يمكن تقديره، إلى أن صارت تلة كبيرة، حتى لا يعود الحجر المنكود إلى صنعته الفاسدة والمفتراة.

لقد أُعجب كل لجنة الحكام وحلقة جمهور المستمعين بالحكاية - كان هذا الضرب من السرد يسمى حكايات، ولم تلبس جلد الأساطير إلا بعد أزمنة سحيقة لاحقة - ومن فرط إعجاب الجمهور بمالوك الثاني وحكايته، همّ البعض منهم بقتله. كانت هذه عادة سائدة تشبه عادة التصفيق لدينا. ولم يتبقّ - لحسن الحظ - من جينة القتل حباً وإعجاباً لدى البشر إلا شبح طفيف انحصر في تحنيط الطيور والغزلان المحببة وكائنات كثيرة أخرى.

لقد توارثت عائلتنا جداً عن جد الآلهة والأرباب لينتهي بها المطاف بعد كل تلك القرون في منزلنا. وعندما فتحت عيني، كانت تحملق بي من وراء أقنعتها التي لا تضمر شراً. وكان والدي في أي وقت، إن نهاراً أو ليلاً، حين يكون في مزاج طيب، يقوم بإخراجها من مهجعها الجماعي، ويصفّها دون تمييز أو محاباة في فناء البيت ليقدم لها النذور والقرابين في طقس تبجيلي واحتفالي بهيج، وسط ضباب من دخان البخور. حتى تلك المعبودة الهرمة، بعينيها الواسعتين وقناعها الأنيق، والتي يبدو أنها كانت الأولى في تراتب ظهور المعبودات على الأرض، ونسيها الناس الجحودون منذ زمن بعيد عندما لم يعودوا في حاجة لخدماتها التي كانت تتمثّل في مساعدتهم على عبور المستنقعات عندما بات في مقدورهم تمييزها عن سواها من الأراضي، حتى هي كان أبي يجتهد في إشعارها بأهميتها ومكانتها العالية بين المعبودات.

أرباب وآلهة كثيرة في أقنعتها العجيبة. يقال إن بعضها انضم إلى هذا العالم عبر التجديف وبالتحايل على مالوك الثاني بعد أن سلطوا عليه السحر الأسود. خصوصاً ذاك الذي يضع قناعاً أكبر يظهره كأنه يهم بالقفز على رقبة الزائر. وهو ما كانت تخشاه السيدة باكنيتا جارتنا الجميلة التي لا تكف عن ترداد ملاحظاتها على مسامع أمي: ما كل هذه الدمى؟ ألا يكفي إله واحد؟ فترد عليها أمي التي تودّها: لا أيتها الحبوبة الكافرة. أما إله المطر الذي لا يشيخ، رغم نحوله وطوله الفارع وقناعه المراوغ ورأسه القمع المقلوب، فقد كان أبي يهابه ويخشى خسوف عينيه. وكان يتضرع إليه بتذلل أن يبقى هكذا شاباً وصحيح البدن ليتمكن دائماً بذراعه القوية من لَيّ أعناق السنوات العجاف ورميها بعيداً عن حدود أرضنا.

بالطبع، لم أكن أنا أهتم بأمر أرباب القدماء وآلهتهم تلك. لكني كنت أجد متعة في التفرج على مسرحية حية يشترك في أداء أدوارها، إضافة إلى أبي، الأرباب والمعبودات وضباب البخور، وأحياناً أمي التي تندمج في ترداد التعاويذ وأداء الطقوس بصفاء ينسيها خصامها المرير مع أبي الذي يغدق عليها من تودده ما لم تحلم به أي امرأة فوق الأرض.

بعد فراغي من قراءة حزمة الورق التي نعتها مالوك وهو يناولني إياها بـ «حكايات ما قبل النوم»، عثرت وسطها على ورقة يغاير لونها لون حزمة حكاية ما قبل النوم، جاءت فيها هذه القصيدة التي عنونها «عبور»، وخمنت أنه كتبها قبل أن ينام

مباشرة. وربما لا يزال يكتب أجزاء منها في منامه الآن ليطلعني عليها غداً.

بلا تميمة
عبرت بوابات حراسة
زحفت مثل دودة
خلال أسلاك شائكة
ابتلعتني سبخات ملح
أحاطتني كلاب الصحارى
هرولت
وسط أشجار شريرة
أكلت ملابسي
باغتني مطر
رأيت ساقيّ
تغوصان في مدافن طينية
ذابت في السيل
لكنني عبرت
بيد أني الآن
أريد تميمة
لأعبر
برازخ النار
نحو قارات الثلج.

في الصباح، طالعتنا وجوه مهاجرين كانوا قد سبقونا إلى تونس. لخصوا لنا صعوبة الوضع. كما حدثونا عن رجال الدرك وحاسة شمّهم المضاعفة. وعن السماسرة قالوا، كلهم زائفون ينهبون الأموال ويذوبون في البارات، ويستحيل أن تعثر لهم على أثر وأنت المقيد عن الحركة.

كانت هناك مجموعة تتكون من مائة وسبعين فرداً من جنسيات مختلفة. حدّد لهم السمسار ساعة الصفر بعد ثلاثة أيام بداية من اليوم. وكانوا في الانتظار موزعين على منازل عدة مستأجرة. وكان ضمنهم صديق لي عمل في بدايات حياته بمراكب الصيد على البحر الأحمر، ثم عمل لحساب مهربين للبضائع بين اليمن وشواطئ مدن القرن الإفريقي يُدعى علي خيرات، وكنت أعرفه في إرتريا وترافقنا لفترة في السودان. علمت أنه هو من سيقود المركب.

التقيته ساعة الغداء داخل مطعم شعبي. عندما رآني، جلجل بضحكة عالية ثم قال وهو يحتضنني ويطوح بجسدي يمنة ويسرة فيما يشبه المصارعة:

- كيف تمكنت من التغلب على كل هذه المسافات أيها العجوز؟

- أنا أصغر منك يا وغد.

أخذني بحفاوة مبالغ فيها، كما يفعل رجال التشريفات، إلى طاولة بكرسيين في العمق. كان المطعم في ذروة ازدحامه بفقراء المدينة، وهم يتفرسون بارتياب في وجوه الغرباء الذين شغلوا عدة طاولات متجاورة.

- ماذا تأكل؟ هذا المطعم، رغم تواضعه، يقدم وجبات لا تضاهى.

- قلت سأعتمد على ذوقك. المهم أكّد على النادل أن يهتمّ بالسلطة.

- لك هذا. ولكن ما رأيك أن تجرب طبق «الجلبانة باللحمة»، بازلاء باللحمة والبهارات، كما إنها حارة قليلاً. الفلفل هنا يلقي بظلاله على كل الطبخات.

- أحضر النادل «الفرايحي» جداً الجلبانة التي كانت شهية للغاية. وطبق «الكسكسي بالحوت» لأبي الخيرات.

- حسبما عرفت، قال وهو يضع سمكة على طبق جانبي لتبرد، لقد عبرتم الحدود في يوم تتجنب حتى الشياطين التفكير فيه. كيف فعلتم هذا؟

- الغباء. الغباء يا أخي منعنا من التركيز على تواريخ الأيام، وما يعنيه السابع من شهر نوفمبر/تشرين الثاني بالنسبة إلى الجمهورية التونسية الحبيبة. ولولا حسن الطالع لما كنت معك هنا.

بعد أن تذوقت لقمة من طبق الجلبانة، وسط كيل مديحه لمذاقها، وكم هي شهية. بادرني: ما قولك؟ وانتظر وكأن شهادتي ستُعلي من شأن الطبق.

- لذيذة، لم أتخيلها شهية إلى هذا الحد.

عندها ردد في فرح:

- أنت في تونس بلد السياحة، إنهم يهتمون بأطباقهم.

سألته عن صحة ما سمعته عن كونه الملاح الذي سيقود المركب.

- يقال إنك صرت رباناً.

- وما الغرابة؟ هل نسيت أنني كنت أعمل في البحر؟

- صياد، نعم.

- وأفهم في الموتورات ويمكنني أن أقود المراكب.

- هذه مغامرة، لا تنس أنك لست وحدك من سيبحر. معك أرواح بشر.

- لا تقلق. ولا تظن أنني أقدمت على هذه الخطوة استناداً إلى قاعدة «الأعور في بلاد العميان أمير».

- لا أشجّعك حتى لو كنت عملت في المراكب. المراكب شيء وقيادتها شيء آخر.

ما حدث للمركب المنكوب بعد ذلك لم يكن فيه لعلي خيرات يد. فهو قبل وقوع الكارثة تصرف كما كان يجب وإن بعدم ثقة.

فعندما انطلقت من جهاز الـ (ج. ب. س.) أضواء حمراء، تبيّن انحراف سير المركب عن إحداثيات الوجهة التي تمت برمجتها عليه. كان وهو ينظر إلى الأضواء المرتعشة يكاد يموت من الرعب. كيف يتصرف؟ عندما أعلموه أنه سيعطى، زيادة في السلامة، جهاز تحديد الاتجاه، تعلل بأن جهله لعمل الجهاز يعود

لكونه كان يعمل على مراكب لم تسمع به. ولكن لا بأس، قال، إن علمتموني كيف يعمل. أنا أملك قابلية فهم الإلكترونات بسرعة.

ذهبت معهم في الأمسية التي خصصت له بغية تعليمه كيفية قراءة مؤشراته. كان المركب راسياً في الميناء وسط قوارب الصيد. شكله من الخارج مُطمئن، لكن حين أصبحنا على متنه أطاح بالشعور الحسن الذي لامسني من مرآه.

كانت ثلاجات حفظ الأسماك قد خُلعت لإضافة مساحات يجلس فيها المهاجرون، وخلّفت في الأماكن التي أزيلت منها ثقوب البراغي وآثار الخلع العنيف. وكانت المساحات والممرات التي تجاورها مغطاة بطبقة زيوت وأوساخ، في حين كانت مساحات الثلاجات المربعة والمستطيلات التي أزيلت نظيفة، وظهر الموتور الذي كان دائراً بصوته الذي يصيب بالصمم مع انبعاث دخان خانق في موقعه، مجللاً بالزيوت والشحوم. قالوا له: ما عليك سوى التركيز وإخضاع الأمور لحدسك. رد، وهو سريع الردود: في الليل أنا بارع في الملاحة، أعرف كيف أهتدي إلى وجهتي عبر مواقع النجوم. هذا ما اكتسبته من سني الصيد.

أروه سهولة عمل الجهاز، وكان هو يستمع إلى الشرح المطول والمعقد أحياناً، يهز رأسه علامة على الفهم. لكنه في الحقيقة لم يلتقط من كل ما قيل له سوى أنه «إذا حاد المركب عن إحداثيات السير، ستنبعث من الجهاز أضواء حمراء». وتأكد لي لاحقاً أنه لم يعر بقية الشرح اهتماماً «... ولحظتذاك، ما

عليك سوى تعديل الدفة يميناً أو شمالاً إلى أن يختفي ضوء الخطر.»

لم يكن خيرات يملك ثمن الرحلة ولا ثمن خبزه اليومي. كان يقضي نهاره في ساحة المنزل الذي استأجره أصدقاؤه، تلسعه سياط الشمس ويهجم عليه الذباب الجائع. وللخروج من وضعه، كانت الوسيلة الوحيدة التي فكر أنها ستساعده على السفر هي أن يقدم نفسه للسماسرة كملاح. إنها الطريقة الوحيدة التي ستعفيه من دفع الألف دولار ثمن الرحلة وثمن الخبز الذي سيأكله. هكذا أبحروا في الموعد. كان المركب في الأصل جرافة لصيد السمك، قوة موتورها ٢٠٠ حصان وطولها ثمانية عشر متراً. عندما داهمتهم الأمواج، ظهرت عيوبه دفعة واحدة. كافح علي خيرات بتوجيه الدفة بحنكة بحار عتيد. لكنه عجز عن إعادة الثبات إلى قلوب الناس الواجفة.

آثر مالوك الانطواء والصمت وسط التوتر الذي ساد المركب. كان يصلي في سره أن يصل بهم بسلام إلى الشاطئ. وكلما سمع درجات الخطر، تمنى أن لا يسمع أي ثرثرة من النوع الذي يتبادله المرتعبون.

كان الموج يأتي مثل جبال محتدمة تلطم المركب الذي أصبح مثل فقاعة ستنفجر آجلاً أو عاجلاً. همس: لماذا يوحي هذا المركب بأنه على وشك الغرق؟ وهذا الخشب الذي يئن، ألا يعرف أن يصمت؟ خلص بعض المهاجرين إلى يقين قاطع بأن الكارثة واقعة لا محالة. وكلما رأى وتيرة الرعب المتعاظمة،

خشي أن يفقد الناس الأكثر هلعاً صبرهم ويقفزوا إلى المياه. لكن الخطر الحقيقي لم يكن في الموج، على الرغم من شراسته، بل كان في الثقب الذي ظهر في أرضية المركب وأخذ يتدفق عبره السيل، مهدّداً بغمر المحرك. ضربات الموج العاتي وقرقعات الخشب وانخلاع أجزاء من جسم المركب الخارجي، جميعها تكفلت بإضرام الصراخ والهذيان وانفلات الأعصاب.

علي خيرات، الذي كان يعالج أمر الثقب، حاول تهدئة الهياج قائلاً:

- «نحن الآن في مجرى الملاحة الدولية، وحتى لو تعرضنا للخطر، فإن السفن الكبيرة ستراناوتهرع لنجدتنا. المطلوب من الجميع الهدوء حتى نصلح العطل». كانت كل عيون المهاجرين متعلقة به. لقد فعلت كلماته فعلها الساحر في النفوس وأضفت للحظات جواً من السكينة. لكن موجة غاضبة رفعت المركب في الهواء ثم رمت به إلى هاوية سحيقة، ما أعاد هستيريا الصراخ وكلمات القنوط إلى الأرواح اليائسة من جديد.

- سننجو. قال أحدهم متفائلاً.

- هل تعتقد ذلك؟ سأل صديقه الذي أفرحته كلمات التفاؤل.

- وماذا تعتقد؟ هل تشك في ذلك؟ إنهم يعالجون الخلل.

- أرجو ذلك، ردّ رغم علامات الشك التي كست وجهه.

حين ظهر البلل على أرضية المركب المحيطة بالمحرك، قلق الربان وحده بداية. كان يشبه من سكب أحدهم سطل ماء صغيراً

توزعت مياهه على مساحة كبيرة بسبب تمايل المركب. ولم يظهر التسرب بهذا الجنون إلا بعد نحو ثلاث ساعات منذ ظهوره الأول.

لقد عثر خيرات على موضع التسرب. بالكاد كان يستطيع أن يرى، وعزا سبب وجوده لعملية الخلع غير الحريصة لثلاجات التبريد التي نُحيت من أماكنها. لقد سدوه بأن دكوا عليه قطعة مشمع كبيرة ثبتت بقضيب حديدي. ولكن مع تطاوح المركب والصعود والنزول العنيف نتيجة الأمواج النزقة، اتسع الشق وبات الماء يندفع إلى أرضية المركب كما من فوهة أنبوب، ليجدوا أنفسهم فجأة يغوصون في المياه إلى ما دون الركب قليلاً. دفعهم ذلك للتفكير في نزح الماء بما هو متوافر من أوانٍ. عمل الجميع بداية بهمة لا مثيل لها، بل وزادت الحماسة حين ارتفعت عقيرة أحدهم بالغناء. ولكن بعد ساعات من العمل الشاق وتدفق المياه أكثر من ذي قبل، وارتفاعها لتبتلع كامل المحرك الذي توقف نهائياً عن العمل، انكسر الإصرار الذي ظهر عند ظهور المأزق.

قلة قليلة ظلت تكافح الماء. طوال الليل، غاصوا مراراً لدعم الثغرة بأن دكوا فيها المزيد من المشمعات وقطع الملابس. بل وبقي مالوك لساعات هناك ليثبت بيديه وقدميه السدادة الضخمة. وتمكن الأنفار القليلون من نزح نصف الماء تقريباً، لكن عطل المحرك لم يعالج وبقي رغم كل محاولات الإصلاح خامداً بلا حياة. كان خيرات يفك المحرك ويركّبه مرة في اليوم الواحد على الأقل طوال الأيام الخمسة الأولى من وجودهم وسط البحر.

خلال تلك الأيام، هدأ الطقس والأمواج التي كانت تعربد. ماتت وغدا كل شيء ساكناً.

توفي اثنان من الركاب بفعل مرض مفاجئ. ظلّت جثتاهما فوق سطح المركب حتى مساء اليوم السابع. ومع اليأس من عمل المحرك وعدم ظهور أي نجدة، رموهما في الماء. في الصباح، ظهرتا طافيتين بجوار المركب.

السحب السوداء التي تجمعت جلبت معها العواصف والأمواج التي حاصرت المركب. ظلّت تضربه بلا هوادة على مدار الساعة، وكان المطر يحلب نفسه بلا تعب. كما إن الثغرة استيقظت وصارت تدفع المياه بعنف نحو الداخل رغم محاولات مالوك لوقفها. في اليوم الثامن عشر، وقبل غرق المركب بأربعة أيام، بدأ العطش والجوع يحصد الضحايا. سقط منذ نهار الأمس وحتى هذا الصباح المكفهر عشرون شخصاً ظلوا يصارعون للبقاء. لكن مع شروق الشمس لفظوا أنفاسهم تباعاً.

قال علي خيرات المنهك:

- قد ننجو يا شباب. اخرجوا إلى السطح وراقبوا إن كانت هناك باخرة تمر بالقرب منا. أنا أعرف صوت محرك السفن الكبيرة الذي أسمعه الآن.

انتشروا على السطح يراقبون كامل الأفق. بعد نحو الساعة رأوها. كانت ناقلة نفط كبيرة صاروا يلوحون لها بكل شيء. عندما أصبحت بمحاذاتهم، رأوا البحارة القليلين الذين كانوا على سطحها ينظرون نحوهم جامدين . قال مالوك:

- ارموا جثة من الجثث لعلّهم. . .

بسرعة، رفعوا جثة امرأة ورموا بها إلى الماء الهائج. لكن البحارة لم يستجيبوا. رموا أمامهم المزيد من الجثث. واصلت الناقلة شقّ طريقها وفوقها البحارة عاقدين أذرعهم إلى صدورهم مع ابتسامات وقهقهات إلى أن اختفوا.

أخيراً، جاءت الجبال وسط الظلام الدامس. هزت المركب هزات عنيفة شعر بها حتى الذين كانوا في غيبوبة. تخلع الخشب مطلقاً سمفونيات خشنة عبر شدق الشق. دفعت المياه الأنفار القليلين الذين كانوا في الداخل إلى الخروج إلى السطح. وهمس مالوك بكلماته الأخيرة وهو يرتقي السلالم: خلاص، وثبت الكرة.

راح بعدها جسم المركب يغوص، وصار الناس يقفزون إلى المياه الباردة.

كرّ في ذاكرته شريط الذكريات الطويل، مستعيداً اللحظات الخطرة واللحظات السعيدة. إلى أن وصل إلى ليلة الإبحار وابتعاد أضواء تونس العاصمة وشروق شمس المتوسط، والدلافين المرحة التي كانت تواكبهم، والظلال التي نشرتها فوقهم غيمة النوارس، مروراً بهذه اللحظة، طافياً فوق خشبة من حطام المركب، وحوله أجساد كثيرة فارقتها الحياة تلعب فيها أسماك شرسة كانت تقضم أثداء النساء، ليفيق من وقت لآخر من الإغماء كلما شعر أن الخشبة تتملص من تحت جسده. كما أنه تذكر «رامبو»، وتذكر أنه في يوم بعيد كان قد كتب شيئاً عنه. وراح يقرأ في سره ما بقي منه في ذاكرته.

همس بالأنفاس الباقيات من الشعر فوق ذلك القارب الضائع في لجة الأمواج:

- إذا حضرت أيها الموت الآن، فهذه هي اللاعدالة.

جاءه صوت من أعماق البحر:

- ولكن يجب أن يتم الأمر الآن وفوراً.

- أنت الكائن الوحيد من بين الكائنات الذي لا يمنح دقيقة واحدة لوداع لائق.

- هكذا أعرف عملي، ولا أعرفه إلا بهذه الكيفية.

- ألا ترى أن في هذا قسوة؟ امنحني بضعة أيام، أريد أن أكمل عملي الأخير.

- ما نوعه؟

- أريد أن أرجع إلى موطني.

- موطنك؟

- لقد راهنت.

- راهنت؟

- العودة بقصيدة أخذتني إلى كل هذه الأسفار.

- كنت مخطئاً.

- لا أريد أن أخسر.

تلا أيضاً مقاطع شعرية. أخمن الآن أنها وليدة تلك اللحظة الرهيبة.

١

مراكبهم بلا أسماء،

مثل قبور مجهولة.

تواكبهم دلافين مرحة

وتظللهم غيمات نوارس.

٢

هرولاتهم في الأزقة

توقظ المرافئ الغافية،

فتصدهم

جدران المدن كالكرات.

٣

حين تأتي أرتال الموج

صفاً صفاً،

تنهار

دروع الروح،

وتهجس:

«إلى أين

تأخذينني

أيتها الساعات القادمة؟»

٤

تفيض أرواحهم

فوق أملاح البحار،
وعظام موتاهم
القابعة
في الصحارى
تتعرّى،
حين تخطف العواصف
من فوقها أكفان الرمال.

٥

يا بحر،
باسم ما لك
من وجوه في الذاكرة
باسم من انطبع
صراخهم
في الهواء كتذكار.
الجم هذه الريح القرصان
واقطع توالد أمواج
الخفاء.

٦

يقذف البحر
وجوههم
كقناديل

تدلت من سماوات
فتصلبهم الحضارة
فوق أسلاك الحدود
أو ترفع أشلاءهم عالياً
كالأسلاب.

قالت وهي تتطلع حولها في أنحاء المكان: هذا أكثر من حبس وأقل من سجن. هكذا خلصت ترحاس وهي تشرح لي الفرق بين الاثنين، عكس اعتقادي القديم الذي كنت أرى فيه أنهما شيء واحد. لكن ترحاس، بحكم ما قرأت من كتب ألفها رجال قانون وقضاة نزيهون وسجناء ضمير، توصلت إلى أن هناك فرقاً بيناً بينهما في العالم المتقدم. أما عندنا في العالم الثالث، فالاختلاف في المظهر فقط، أما الجوهر فهو هو، مكانٌ للإذلال.

كان مسيّجاً بإحكام، وعليه حراسات مشددة، ترابط أمام مدخله العريض البوابة التي قبل المدخل، والتي ترفع وتخفض عارضتها الحديدية لتمر خلالها سيارات شرطة السجون والمسؤولون ورجال الدرك والأعوان والمخابرات وكل العيون الخفية والمخفية. حالما تم الإمساك بنا داخل نزل، حُمّلنا في سيارة سوداء، زجاجها الأمامي كما زجاج النوافذ مشبك بقضبان معدنية. وقفت السيارة أمام مبنى وزارة الداخلية بشارع الحبيب بورقيبة حيث تم استجوابنا. ووجدوا مصادفةً الدليل الدامغ الذي يدحض كل الأكاذيب التي أدلينا بها للمحققين إجابة عن سؤالهم

بخصوص جهة قدومنا والمكان الذي دخلنا منه إلى التراب التونسي.

بعد ساعات من المناولات الخفيفة والثقيلة على الوجوه، وضربات طائشة بالأحذية كيفما اتفق، وخبط الأجساد على الجدران، وثبات من جانبنا على ما أدلينا به من كلام حول وجهة قدومنا ومكان التسلل، لم يصدقوا رواية أننا جئنا على متن باخرة بضائع قادمة من مصر، وكنا نريد أن نواصل طريقنا معها إلى إسبانيا. لكن الربان، عندما وصل قبالة شواطئ تونس، وضعنا على أحد قوارب النجاة لأنه وجل من انكشاف أمره بنقل مهاجرين غير شرعيين. وقلنا لهم: بعد جدال، وافقنا على النزول إذا أعاد لكل منا نصف المبلغ الذي تقاضاه مقابل رمينا على شواطئ إسبانيا. وهكذا رسونا ليلاً على شاطئ مهجور ثم أغرقنا القارب هناك. وأقمنا في النزل الذي وجدتمونا فيه.

أثناء مداهمة النزل، كان مالوك قد خرج لغرض ما ونجا من الحملة. وحين عاد في وقت متأخّر، طلب منه سي الناجح المغادرة لأنهم قد يأتون في أي لحظة للبحث عن البقية.

هكذا حمل غيتاره ورحل، وقصد مباشرة أحد البيوت المستأجرة التي ينزل بها المهاجرون الذين تحددت ساعة سفرهم. دفع المبلغ وانضم إلى المنتظرين.

لم يتراجع أحد، رغم كل أساليب الضغط والإغراء بالإفراج الفوري في حال أظهر المهاجر التعاون وأفصح عن جهة القدوم. لكن التوفيق الكامل كتب للمحققين ومدهم بذلك الدليل الذي

دحض الترهات التي صغناها وتمسكنا بها. فقد انكشف الأمر حين وجدوا مصادفة ورقة نقدية ليبية من فئة العشرة دنانير في جيب مهاجر إرتري. تجولت جوقة من المحققين بالغرف التي كنا نحتجز داخلها، وهم يرفعون أمام أنوفنا ورقة العشرة دنانير كدليل قاطع يشير بلا لبس إلى آخر بلد تسربنا منه.

- قلت للشاب الإرتري الذي عثروا بحوزته على الدليل الذي أبهجهم:

- لماذا لم تنفقها هناك أو تتكرم بها على الفقراء؟

- أحببت أن أحتفظ بها للذكرى، أجابني وهو غير مصدق ما أوقعنا فيه من مأزق، وأضاف: خصوصاً أنها تحمل صورة لعمر المختار.

تكلمت ترحاس قائلة:

- لو كنت طلبت إلي أن أرسمه لك لرسمته.

عقب هذا النصر المؤزر، حملونا إلى السيارة ورموا بنا في حبس «الوردية»، على اسم الحي الذي يقع ضمنه.

أمضينا ما يقارب الشهر في الحبس. وضعونا في سيارة كبيرة يحرسها رجال درك أفظاظ. ويا للبجاحة التي بدت على صوت أحدهم وهو يتلفظ بعبارته المقيتة التي لم أتخيل في حياتي أنني سأسمع عبارة في قبحها وثقلها البتة.

كان واقفاً في مواجهتنا، مسنداً جذعه إلى كرسي السائق، وقد تدلى مسدسه الغبي من حزامه المرخي. قال منتشياً: «نحن الشرطة نحكم العالم».

دحرج جملته الثقيلة هذه، ثم تراجع إلى الخلف مسنداً ظهره إلى زجاج السيارة الأمامي، بعد أن دفع بمؤخرته الضخمة إلى أقصى حافة الكبينة. سمعت ضراطه الذي «فشفش» في المكان برائحة كريهة. ولما رأى مدى تذمّري من الرائحة، صفعني على وجهي فكدت أفقد وعيي.

رموا بنا على الحدود وتابعونا بأعينهم ونحن نخرج من البوابة صوب المنطقة الميتة الواقعة بين البوابتين. من هناك، تسللنا إلى ليبيا. البعض سلك إلى يمين الطريق، والبعض الآخر إلى يساره. بعد مسيرة عشرين كيلومتراً، دخلنا أول بلدة حدودية. ومن هناك غادرنا إلى طرابلس في سيارات أجرة.

عند نهاية الأسبوع الثاني، كنا أنا وترحاس على متن طائرة متجهة إلى الوطن بعد أن استخرجنا وثائق سفر اضطرارية من السفارة.

تأكد لي أن المركب الذي كان به مالوك قد غرق ولم تكن جثته ضمن الجثث التي تمّ انتشالها. لقد أخبرني سي الناجح الذي هاتفته عبر رقم الفندق. قال لي بأسف شديد:

- أعطوك أعمارهم. ويا ريت الشرطة كانت شدت مالوك، كان الآن عايش.

كان يتكلم وكنت أبكي، وشعرت من خلال حديثه أنه يضغط على أجفانه التي كان الدمع يبللها من دون شك. انتُشلت من ضمن الجثث جثة علي خيرات ربان المركب المنكوب. أبرقت

إلى أهله بالنبأ الحزين. أبرقوا إلي في مساء ذلك اليوم نفسه أن أرسل لهم الجثمان جواً ليدفن في مسقط رأسه. وهذا ما قام به أحد الإرتريين المقيم في تونس.

خلال سنوات لاحقة، كنت أحلم بمالوك دائماً، أراه واقفاً في ركن بعيد في شارع ساطع الأضواء، وقد استعد للعزف على غيتاره الذي قضم أوتاره الملح. ما الذي دق أوتاد ذكرى مالوك في روحي؟

هل هو رحيله المأسوي؟ أو هي تلك الدندنات التي يستلّها من فظائع حروب ليبيريا الأهلية؟ أو قد تكون تلك الطَّرقات برؤوس الأصابع على خشب بطن الغيتار. وصناعة لحن أهداه إليّ، يبرز التوق إلى الخلاص، محاكياً الأصوات والكلمات الحامية الباكية المتألمة التي لا نقولها لأحد ونحن في مقام تتساوى فيه كفّتا الضياع والرجاء. وآه... يا مالوك الثالث يا صانع الأساطير، قد يكون ما يشدني إليك كل هذا. لكن ذكراك وحزني عليك الآن يطغيان على ما عداهما من ذكريات. أنت كل حزني. حزني القاطع بلا رحمة.

كأني يا مالوك الثالث خرجت من بلدتي وعبرت مفازات الرمال لألتقيك وأتعرف إليك. ثم ليأخذني رحيلك إلى حدود للحزن قصية...

عقب رحيله، أصبح مالوك شغل الناس الشاغل. في حجرة الدردشة على الإنترنت، كتب لي أحد المدردشين:

- هل سمعت أحدث أخبار مالوك؟

- كيف تكون له أخبار وقد رحل؟

- ولكن إليك ما سمعته هذا اليوم. . .

- هاته بسرعة. وبعد انتظار طال دقائق ظننت فيها أن المدردش قد ترك حجرة الدردشة، ظهر لي على الشاشة ما يلي:

«هاك الخبر العجب. . . قالت امرأة نقلاً عن جار لها إنه قد نقل عن امرأتين كانتا قد جاءتا حديثاً إلي مدينة. . . (نسي أن يكتب اسم المدينة)، أنهما قد سمعتا من ابن بائع أسماك بمدينة روما أن أباه سمع عن نقيب الصيادين الذي سمع من تاجر للجملة أخبره أن صيادي سمك سمعوا وسط البحر عن صيادين من تونس الخضراء أن بحارة سفينة كاكاو قادمة من أفريقيا كانت تبحر في المياه الدولية أخبروهم أنهم رأوا شخصاً يحمل على ظهره غيتاراً، وكان واقفاً فوق موجتين تؤرجحان برفق جسده المنتصب.

لم تكن ملابسه مبللة، كما لم يُظهر لا الخوف ولا القلق، ولم تبد عليه أمارات رجل قد واجه الخطر. كان واقفاً فحسب فوق الموجتين، كما كان يفعل منتظراً في الناصية إطلالة وانيناباندا. كان يخاطب طاقم سفينة شراعية عملاقة. أجابهم حين سألوه عن اسمه، «مالوك». أركبوه فيها ومضوا بينما كان يُسمعهم أغنيات.»

وفي ذات الفترة، كتبت لي مدردشة قالت إنها من الهند:

«نقل عن صيادي أسماك يجوبون المتوسط أنهم شاهدوا سفينة شراعية لم يسبق لهم أن شاهدوا مثيلاً لها تنتشل شاباً أفريقياً كان يمشي فوق الموج كما يمشي الناس على الأرض تماماً. وأن

منقذيه كانوا يحتضنونه واحداً واحداً وسط احتفال صاخب، عزفت خلاله موسيقى أفريقية تخللتها أغنية جديدة لمالوك تقول:

أيتها القلوب
في المراكب المولهة
سأشق
بقلبي الطلق
نوافذ في هذا المدى
وأقول لروحي
أن تضج بالرحيل الكتوم،
وأن تملأ
أكف الطين بالندى
والغناء.

من إرتريا وأثيوبيا والسودان والصومال وغانا وليبيريا، ومن كافّة أنحاء القارة المنهوبة الفقيرة، مهاجرون يجمعهم السماسرة في مراكب لا تصلح للإبحار ويرسلونهم إلى قعر البحر.

"توفّي اثنان من الركّاب بفعل مرض مفاجئ. ظلّت جثّتاهما فوق سطح المركب حتى مساء اليوم السابع. ومع اليأس من عمل المحرّك وعدم ظهور أي نجدة، رموهما في الماء. في الصباح، ظهرتا طافيتين بجوار المركب.

السحب السوداء التي تجمّعت جلبت معها العواصف والأمواج التي حاصرت المركب. ظلّت تضربه بلا هوادة على مدار الساعة، وكان المطر يحلب نفسه بلا تعب. كما إن الثغرة استيقظت وصارت تدفع المياه بعنف نحو الداخل رغم محاولات مالوك لوقفها. في اليوم الثامن عشر، وقبل غرق المركب بأربعة أيام، بدأ العطش والجوع يحصد الضحايا. سقط منذ نهار الأمس وحتى هذا الصباح المكفهرّ عشرون شخصاً ظلّوا يصارعون للبقاء. لكن مع شروق الشمس لفظوا أنفاسهم تباعاً."

أبو بكر حامد كهال: روائي أرتري مقيم في ليبيا. كان عضواً في "جبهة تحرير إرتريا" لسنوات عديدة وشارك في معارك التحرير ضدّ الاحتلال الإثيوبي. له روايتان "رائحة السلاح" و"بركنتيا: أرض المرأة الحكيمة".

ISBN 978-1-85516-320-1

9 781855 163201 >

DAR AL SAQI
دار الساقي